# بَيْتُ جَنٍّ

## درَّة جَبَلِ الشَّيخ

عز الدين الدوماني

الكتاب : بَيْتُ جَنٍّ : درَّة جَبَلِ الشَّيخِ (رواية)

المؤلف : عز الدين الدوماني

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٩

رقم الإيداع : ١٥٤٢ / ٢٠١٩

الترقيم الدولي : I. S. B. N : 978 - 977 - 493 - 314 - 1

---

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه . زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www. shams-group. net

---




# بَيْتُ جَنٍّ

## درَّة جَبَلِ الشَّيخ

رواية

عز الدين الدوماني

# إهـداء

من أجل :

- محبي جمال الطبيعة الأخاذ المحافظين عليها نقية نظيفة.

- المضحين في سبيل كرامة الإنسان ، شرفه.

- محبي التسامح وجامعي الشمل ومصلحي ذات البين.

- من وقف إلى جانبي ، وأسدى النصح ، وشد من أزري زملائي.

- أسرتي التي كانت خير سند لي.

هذا العمل

د / ع

# الفصل الأول

في قرية عشقت الحرية والانطلاق ، احتضنتها أكناف سلسلة من مرتفعات الحرمون الواقعة في الجهة الجنوبية الغربية من سورية ، وقعت أحداث مهمة كان أحد أبطالها قد حباه الله شجاعة نادرة رضعها مع لبن أمه المستمد من طبيعة خلابة بديعة ، قلما تجد نظيرًا لها بما منحها الله من موقع متميّز ، وارتفاع ليس ببسيط عن سطح البحر ، ومناخ معتدل صيفًا لا تزيد درجة حرارته في أشد أشهر الصيف حرًّا عن الثلاثين بقليل ، وبشتاء يميل للبرودة ، فإن قست برودة شتائها جاءت مصحوبة بأمطار غزيرة أو ثلوج كثيفة يعقبهما برد قارس. هذه الأنواء المتقلبة والممتدة أحيانًا تحجب عن أهل المنطقة ابتسامة الشمس غير يوم ، وتزيد معاناتهم ، ورغم ذلك يرونها ممزوجة بالحنان بعض

الشيء، فإن قست على مضيفيها، لكنها في أحايين أخرى لا يطول مكوثها، فسرعان ما تتبدل الأنواء فتسمح لأم الكون بالظهور لتمنحهم بعض الدفء ما يجعلهم مستأنسين بها لا يسأمونها ولا يشكونها، فبينهم وبينها عهد، كلاهما بارٌّ به ملتزم تطبيقه رغم الجليد الذي تخلفه، والثلوج التي تتراكم فتغطي أرضهم، وتَحُوْل من دون خروجهم إلى أعمالهم في حقولهم، إضافة إلى حبسها حيواناتهم بحظائرها طيلة تلك الهجمة القاسية؛ ما يغرمهم مؤونة إطعامها من مدخراتهم المحدودة، لكنهم على العهد باقون، فلا يرفعون شكوى ضدها إلى إله البشرية، طالبين في صلواتهم زوالها، وإنما يطلبون في تضرعهم لله أن يخفف من قسوتها وحدتها، فهم طيلة أيامها يشكرونه، فبها يستبشرون خيرًا عميمًا لما تحمله في ثناياها من إرهاصات لمواسم وفيرة.

أما حيواناتهم فهي تجأر لله أن يحفظ أصحابها من كل مكروه، ويعوضهم على ما يقدمونه لها من رعاية ومؤونة قد تكون أحيانًا على حساب حاجة أولادهم وأنفسهم أجرًا

عظيمًا ورزقًا وفيرًا. كم من شخص في القرية نفدت مؤونة حيواناته فجاء مستلفًا المال من غيره ليشتري لها ما يسد رمقها لشعورهم بأنهم مأمورون بإطعامها، كما قضت تعاليم دينهم الحنيف، فهذه البهائم وفق تعاليم عقيدتهم، وعُرفهم في مجتمعهم ستشكوهم يوم الحساب لله، جلَّت قدرته، إن قصّروا في إكرامها أو أهملوها جائعة، أو اعتدوا على أجسادها أو حبسوها بغير مبرر. هذه الفطرة جزء من سجاياهم التي اكتسبوها من الآباء والأجداد وعايشوها واقعًا ممارسًا يوميًا، وسيورثونها أبناءهم من بعدهم؛ لذلك كان ديدنهم في تعاملهم مع حيواناتهم نابعًا من عقيدة راسخة في نفوسهم لا تتأثر بقسوة الظروف أو قصر اليد والعوز؛ فهم رضعوها مع لبان أمهاتهم فغدت سلوكًا يمارسونه من دون تحفظ.

فإذا كان هذا تعاملهم مع حيواناتهم، فكيف سيكون فيما بينهم؟! حقًا إنه قمة في الرقي الإنساني الواعد، فعلى الرغم من محدودية التعليم في بيئتهم، والذي يقتصر التنوير

فيها على المسجد (الكُتّاب) لكنه مؤثر ومرغوب يتسابقون إلى إرسال أبنائهم من أجل تحصيله ، فله الأولوية على حساب العمل في الأرض التي تتطلب منهم جهد كل فرد. كم تكون فرحتهم كبيرة إذا ختم أحد أبناء القرية القرآن الكريم ، لذلك تراهم يقيمون له احتفالاً عظيمًا يتداعون إلى حضوره بل يعتبرون حضوره واجبًا مقدمًا على ما سواه. إن مشاركة أحدهم في الاحتفال واجبة في عُرفهم ، كما أنها تلزمه حمل هدية مناسبة تليق بالمحتفى به، فالفقير منهم يحاول أقاربه جاهدين أن يحتفوا به ما يجعل صاحب الختمة علمًا يتردد اسمه على الألسنة، فيغدو قدوة يُحتذى بها.

لكن الفرحة تبقى منقوصة ، فالنصف الآخر من الأبناء يندر التحاقهن بالكتّاب ، إذ إن العرف في القرية أن الفتاة مصيرها ربة منْزل. لكن حب التعلّم راسخ في نفوسهم ، فتقديرهم للشخص يكبر كلما كان متعلمًا.

في هذه البيئة المعطاءة النقية الصافية ، يعمل أهلها بلا كلل أو ملل طيلة يومهم في حراثة الأرض وزرعها ،

وتعشيب النبت ورشه، وجني المحصول وبيعه... إنها أعمال تستنْزف طاقاتهم، فيعود أحدهم إلى المنْزل مساءً منهكًا لا يلوي على شيء، كل همه أن يأخذ قسطًا من الراحة حتى يتمكن من متابعة عمله في يومه التالي.

فبمجرد أن يلج الرجل منهم بيته تستقبله الزوجة سعيدة بعودته، ولسانها يلهج بالدعاء لله أن يوفقه ويطيل في عمره، وتقدِّم له الماء واللباس، ثم تقفل راجعة إلى المطبخ لتحمل إليه ما حضَّرته من وجبة العشاء الرئيسة. اهتمام زوجته به يخفف عنه قسطًا كبيرًا من معاناته، ثم يأتي الطعام من بعد ليستكمل إعادة النشاط، فتقوى همته ويتحفز، فيذهب إلى المسجد للصلاة. هناك يتبادل الأحاديث مع رواد المسجد ما يحفزه إلى التوجه كغيره لإحدى المضافات التي يعتبرونها ديوانية يناقشون فيها شؤون القرية، وقد يختار مضافة المختار أحيانًا ليسمر وليسمع المستجدات على الساحة القروية، فالمختار ينقل إليهم كل مستجد يأتيه من دوائر الدولة كالتجنيد أو القضاء، كما يتشاورون في أمور

الحياة اليومية والمعاشية من زراعة ورعي ومواسم شتوية أو صيفية وحركة مبيعات المحاصيل ، وما تثيره من شجون في نفوسهم إن كانت حركة بيعها بطيئة في الأسواق ، فهم ينتظرون ريعها بفارغ الصبر حتى يسددوا مصاريفهم اليومية. هذه السهرات ربما تطول أحيانًا إلى وقت متأخر من الليل وبخاصة إذا حضر الحكواتي، وقصَّ عليهم حكاياته ليعوض عن وسائل التسلية التي يحتكرها ورق اللعب (الشدة). فما يحمله أبو حامد في جعبته من قصص تخص بشرًا آخرين عاشوا في عالمنا ، قد تصرف هذا الفلاح عن مشاغله بعض الوقت، وتخفف من وطأة معاناته، فينتظر بدء الحكواتي بفارغ الصبر، والذي بدوره يتنحنح فإن استشعر سلطان السكون ساد جو المضافة تربّع في مجلسه ، ورشف رشفة شاي، ثم قلبها في فيه يمنة ويسرة، وبدأ حديثه بصوته المتهدج:

– يا سادة يا كرام وقعت أحداث مؤثرة حدثني عنها الصادق الصدوق ، والحاذق الحذوق ، والعارف بخفايا

الأمور ، صاحب الشان والمقام الذي ، إذا تحدث أمسك كل لسان، وأصغى إليه صاحب الجنان، وإن أمر نفَّذ أمره من غاب ومن كان ، وتسابق لخدمته الرجال والغلمان ، كلامه مسموع ، قضاؤه نافذ ، عطاؤه جزل ، وعده وفاء ، حضوره كمال ، بيته مفتوح يؤمه جمع غفير لاستشارته ، ولسماع حديثه الشائق ، تراه يحكم بين متخاصمين ، ويصلح بين مختلفين ، ويوفق بين أخوَين ، ويتعهد من تأخر في إبراء ذمة ، يوثق عقدًا بين شريكين. إنه رجل بعشرة رجال. لقد شبهه قومه بالأحنف حلمًا وعدلاً وفهمًا وبالسموءل وفاءً وبحاتم الطائي كرمًا ...

كنت نزيل مضافته ذات يوم ، فلما انفض روادها إلا الغرباء جئته قائلاً : يا سيد القوم أود أن تحدثني عن سبب هذه المنْزلة التي تتمتع بها. فأخذ بيدي وقال : يا ابن أخي سأحدثك حديثًا فيه العِبر ، بمثله اتعظت وبتوجهاته عملت ، وبأمثاله تخلقت ، وبنهاياته تمعنت ، حتى كوّنت خبرتي وحنكتي...

أصغيتُ لكل حرف قاله عن حدثه الغريب الذي في طياته العجيب ، لأن مضاره كانت من قريب غير أريب. أبدى نكران الجميل لمن أحسن إليه في صغره ، وكان يأمل منه رد جميله وإحسانه عند كبره ، لكن الفتى أدار للمحسن ظهر المجن عندما أصبح شابًا مفتول العضلات وأقبلت الدنيا عليه بالخيرات ، وسلبت من المحسن الطاقات حيث عركته الأيام ولاكته السنوات ، فخارت قواه واشتعل الرأس شيبًا ، سبحان مبدل الأحوال!

يا سادة يا كرام حديث الحكيم كان عن أسرة ممتدة عاش فيها الجد والأبناء والأحفاد ينعمون بعيش هني ويتمتعون بأخلاق فاضلة ، أصلهم واحد ، وتنشئتهم متسقة ، لكن قد يخلف الورد شوكًا ، والخير شرًا والإحسان سوءًا. في هذا البيت عاشت شخصيتان متناقضتان ، إحداهما نشأت على يد الأخرى ، لكنها مثلت سنام نكران المعروف ونسيان الإحسان والجميل ، والإساءة لمن أحسن إليها. والأخرى مثلت قمة الوفاء والعطاء والتضحية ، فغدت

قدوة لكل صاحب لُب وطامع مجد، في ثنايا الحدث عاش الأولاد وكبروا وتزوجوا، واستمروا مقيمين في البيت الكبير كغيرهم في القرية.

وبتوالي الأيام كثر الأحفاد حتى ضاق البيت عنهم، فبدأ الآباء باستحداث بيوت لأسرهم الناشئة، حيث تعددت بيوتهم، باستثناء واحد منهم كان ينتظر أن يرزق بمولود. طال انتظاره كثيرًا، وبقي المولود بالنسبة له حلمًا، في المقابل كان إخوته تتزايد ذراريهم من حولهم. حطَّ في ربوع القرية عام كبيس لم تذرف السماء دموعها إلا لمامًا، فجفَّ الماء في الآبار والضرع في المواشي، ومات النبات في الحقول، فاستنفد الناس كل مدخراتهم للحفاظ على حياتهم وحياة حيواناتهم، حتى اضطرّ بعضهم إلى بيع ثورَي الحراثة لديه؛ لأنه لم يعد قادرًا على شراء علف لهما، أو ليشتري لأبنائه الحنطة التي ارتفع سعرها ارتفاعًا باهظًا ما جعل الكثيرين غير قادرين على شرائها فلجؤوا إلى الشعير وغيره ليصنعوا منه الخبز. كان مضيّ كل يوم من عامهم الكبيس

يزيد همومهم، ويعقد حياهم حتى كادوا ييئسون من فرج قريب لولا إيماهم بالله. أحد إخوة أبي الحسن كان كثير العيال؛ ضاقت به الحياة إلى درجة دفعته إلى بيع كل ما عنده من حيوانات لإطعام أولاده الكُثر، ولما نفد ماله أخذ يستلف حتى وجد نفسه في نفق مظلم لا نهاية له، فكل من حوله محتاج إلا من رحم ربي وهم قلة... فإلى من يلجأ ليستلف؟ أراد أبو الحسن الطيب أن يخفف عن كاهل أخيه ويساعده على تجاوز هذه الأيام العجاف فدخل إليه من باب حبه الشديد للأولاد وطمعه بكرمه له أن يعطيه ولدًا يملأ عليه بيته حركة وسعادة... بعد تردد دام أيامًا وافق الرجل على اقتراح أخيه، فوقع الخيار على من سبق أن ذهب مع عمه للزيارة من قبل لعله يسهل الأمر على الجميع.

أخذ أبو الحسن ابن أخيه فرحًا بصنيعه، ولمّا وصل البيت فرحت به زوجه واحتضنته كأنه ابنها عاد إليها بعد

طول غياب ما أسعد أبا الحسن فقال : هذا ولد رزقنا الله به ليملأ علينا البيت سعادةً وأنسًا.

لم يشعر الطفل للوهلة الأولى بما يجري حوله ، وظنَّ الزيارة كسابقاتها إن مضت أيامها فسيعود إلى بيت أبيه مجرد اجتماع الأسرة الممتدة في بيت الجد كالعادة... ولَّما حلَّ ضُحى يوم الجمعة أخذ العم بيد الطفل وإلى جانبهما زوجة عمه التي ألبسته ملابس جديدة اشترتها خصيصًا لهذا اليوم حتى يبدو متميزًا من أبناء عمومته وإخوته. فأم الحسن كانت سعيدة بصنيعها إذ وجدت به ضالتها في إسعاد زوجها الذي يتمنى أن يكون له طفل.

في بيت الجد التقى الطفل بأبيه الذي قبَّله وداعبه، وأمه التي احتضنته وقبَّلته بحرارة فائقة كأنها تراه للمرة الأولى، ثم انضم إلى إخوته وأبناء عمومته ما أدخل على قلبه السعادة والاطمئنان، ثم خرج الأطفال جميعهم للعب، بينما انشغل الكبار رجالاً ونساءً بأحاديثهم مستأنسين حتى حلَّ الظلام الذي حتم عليهم أن ينفضّوا. همّ الطفل باللحاق

بإخوته الذين ساروا وراء أبيهم الذي بدا غير متمالك نفسه من حساسية الموقف فخرج مسرعًا كيلا يظهر ضعفه ، فما كان من العم إلا مناداة خالد : حبيبي لا تذهب معهم أنا أريدك.

نظر خالد إليه بعين والأخرى تسمَّرت على إخوته وأبيه في الجهة الأخرى. اقتربت منه أمه ثم احتضنته وهي تخفي مشاعرها ، وقالت : حبيبي عمك يحبك ، اذهب معه فهو محتاج إليك اليوم.

سكت الطفل قليلاً ثم أجهش باكيًا. حبست أمه دموعها ، وكبتت حسرة في صدرها حرّى. أخذ أبو الحسن يمسح دموع الطفل وأعطاه قطعة نقدية ليشتري بها قطعة حلوى.

لم يقصِّر أبو الحسن ولا زوجته في كفالة الطفل وخدمته فكانا كخادمين له ملبين كل متطلباته اليومية هادفين أن يتميَّز من الجميع لباسًا وأخلاقًا وعلمًا.

مضى على خالد في بيت عمه شهور لمست خلالها أم الحسن تغييرًا في نفسية زوجها، فعصبيته خفَّت، وتأفّفه قلَّ، وبدأت تلمح البسمة مرسومة على ثغره معظم الوقت فوصلتها رسالة أن الطفل ملأ حياته، لكنها بحسها اكتشفت ما لم يكتشفه الآخرون في هذا التغيّر، فكلما نادته بـــ"أبي الحسن" ارتسمت على وجهه بشاشة لم تألفها من قبل، وفي عينيه بصيص أمل، فأرادت أن تراقبه عن كثب حتى تتيقن من إحساسها، ولتقطع الشك باليقين فلمست هذا المشهد كلما نادته بأبي الحسن وهو يداعب الطفل ينظر إليها باشًّا ويحملق في عينيها كأنّ فيهما حديثًا ذا شجون، ولم تجد هذه البشاشة إن نادته وهو بعيد عن الطفل.

هنا صمت الحكواتي لحظة ثم سأل: أتدرون بِمَ فسرت المرأة هذا التغيّر يا كرام؟ وأخذ ينظر إلى الوجوه، ولما لم يأت الجواب قال: اسمعوا يا مشايخي، بمَ فسرته؟ إنها امرأة حاذقة عرفت نفسية زوجها معرفة صحيحة يعجز عن فهمها بعض علماء النفس. فقد استقرأت في المشهد المتكرر

كم الرغبة الجامحة في أن يكون له مولود ليسميه الحسن ويناديه كما ينادي (الطفل) بقوله : ولدي... فأرادت أن تضحّي هي الأخرى كما هو يضحّي ، مصممة على ألا تكون أقل منه تضحية ، فانتظرت الوقت المناسب لتحدثه عما عزمت عليه. أتدرون علام عزمت ؟ بقيت فترة تنتظر الفرصة المواتية حتى تفاتحه بما عزمت عليه. فذات يوم لمحت أبا الحسن يداعب الطفل والسعادة تغمره ، فاقتربت منه أكثر من عادتها ، وهمست له بصوت لا يكاد يسمع خشية ألا تضعف أمام ردة فعله فيتعطل مشروعها المستقبلي : أبا الحسن الحبيب اسمع مني إلى النهاية ، بالله عليك لا تقاطعني - الله يرحم والديك - اتركني حتى أنهي حديثي... أنا يا رجُل ، أتألم كثيرًا ، ويكاد قلبي ينفطر من الأسى عندما ألمح في عينيك كم الرغبة في الولد الذي يحمل اسمك ، ويخلد ذكرك بعد عمر مديد - باذن الله - يبدو لي يا ابن العم أن إرادة الباري لا تريد أن يكون هذا المولود مني ؛ لذلك أرجوك ألا تفهمني خطأ... لقد فكرت مليًا وبعمق ،

واستخرت الله ، جلّت قدرته ، غير مرة فوجدت حل مشكلة الأولاد تكمن – حملق إليها ناظرًا متلهفًا سماع الحل– في أن تبحث عن امرأة أخرى تتزوجها ، وإن أردتَ التأكد من صدقي فأنا سأقوم بخطبتها لك ، اختر ثم اترك لي الباقي ، وسأكون مستقبلاً لكما الخادمة المطيعة.

صعقت المفاجأة الرجل. نظر إليها مستغربًا ثم قال بصوت مرتفع وعصبية لم تألفها فيه من قبل : ماذا تقولين يا امرأة ؟ أوصل بك الحد إلى هذه الدرجة ؟ أتظنين أنني ضعيف الإيمان ؟ فلو أراد الله أن يرزقني ولدًا لرزقني منك.

تنهّدت، وقالت : تاج رأسي ، لك بسيدنا إبراهيم أسوة، معاذ الله أن أشكك بقوة إيمانك ، فالله هو المعطي المانع ، لكن من حقك الطبيعي أن يكون لك أولاد ، فإن لم يكونوا مني فليكونوا – بإذن الله– من غيري... أترى في كلامي لا قدّر الله مخالفة للشرع والأعراف ؟.

أعطت نفسها لحظة صمت ثم أردفت : نحن ككل البشر نحب أن نعيش ضمن أسرة ممتدة فيها الحفيد والجد والأب

أليس كذلك؟ تاج رأسي، أنت لم تقصر يومًا معي، وها نحن بعد أيام سندخل في الذكرى العشرين لزواجنا، ولا أمل في أن أحمل، فلم نضيع الوقت هباء؟ إن زواجك من امرأة أخرى قد يحقق لك ما ترغب فيه، ويأتيك مولود يملأ علينا البيت سعادة، ويكون امتدادًا لك ولي، وسيحمل همّنا في هرمنا إن كتب الله لنا طول العمر.

نظر إليها متعجبًا متأملاً قسمات وجهها، وأطال التأمل، فهو لا يكاد يصدّق ما يسمع. وفي نفسه يقول: كم أنتِ كبيرة في عيني بأفعالك وأخلاقك يا امرأة! إن تضحيتك بقبول شريكة لك في زوجك، وضرة في بيتك تنافسك لم يسبق لعلمي أن امرأة في قريتنا فعلتها. أنتِ سبّاقة في المكرُمات هذا ديدنك في فعل الخيرات... يا سبحان الله كم أعطاك بارئك من الإيمان وخصّك من دون غيرك بالمكرمات!

طال سكوته وشروده، وهو يحملق بها ولم ينبس ببنت شفة. ففاجأته: ما رأيك أبا الحسن؟

فرك عينيه غير مرة ثم أعاد النظر إليها وقال : أعطني فرصة أفكر ، وخرج من أمامها مسرعًا ، فلم يعد قادرًا على تمالك نفسه من هول ما سمع ، وأخذ يردد : كم أنت كبيرة يا امرأة! إن كمّ الحب الذي يحمله قلبك يصعب تصوُّره ، كم تمنيت على الله أن تكوني أمًّا لولد لي! انتبه الرجل لنفسه ثم هزّ رأسه وقال : هذا الكلام لا يجدي ، فلِمَ لا أضرع لله فعساه يستجيب لي؟

دخل إلى غرفة أخرى وشرع يناجي ربه : يا ربّ حقق أملي وأملها فنحن من عبيدك جئنا إليك متوسلين بكل اسم لك ، سائليك باسمك الأعظم الذي إذا دعيت به أجبت ، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم يا عزيز يا قادر على كل أمر عسير أن ترزقني من أَمَتك هذه وابنة أمتك مولودًا ، كما رزقت سيدنا إبراهيم من زوجه سارة العاقر ، يا ربّ لا تخيّب رجائي بعد أن أنختُ ببابك مطيتي سائلاً أن ترحم ضعفي وتعوّضني ما فات لأفرح بمولود من زوجي ، وإلا فاصرف عني هذا الخاطر الذي يؤلمها ويؤلمني.

كرَّر الرجل دعاءه مرات ومرات، والدموع تنهمر من عينيه كحبَّات المطر ممزوجة بشهقات كادت تخنقه بمحاولات كبتها كي لا تسمعه. كم مرة حاول أن يصرف عنه هذه المشاعر ليفكر بكلامها، فقد وعدها أن يجيبها عن سؤالها. قطّب حاجبيه ومسح آثار الدموع وأخذ يهمهم: أيصح أن أطعن هذه المرأة بعد أن وقفت إلى جانبي متحملة ظروفي كلها بحلوها ومرها؟ أيحق لي أن أنسى تضحياتها، وأتزوّج عليها؟ إن فعلتُ فهذه قمة النكران.

لكنَّ خاطرًا جاءه مسرعًا ليقول: يا رجل الوقت يمضي بسرعة، ولن يكون لمصلحتك أبدًا. تذكَّرْ كم مضى على زواجكما، ولم ترزقْ بمولود حتى إنها لم تحمل مطلقًا من قبل ليكون لك أمل في نهاية المطاف، إنك تقترب من الخامسة والأربعين، ألا تفكر ماذا تعني هذه السن بالنسبة لرجل مثلك؟ انظر أيضًا إلى سنها التي اقتربت من الأربعين فكلاكما بعد بضع سنوات محتاج إلى من يقف إلى جانبه ليساعده، أليس كذلك؟

أجّج هذا الخاطر شجونه وذكّره بقصة عمه أبي يوسف وزوجته العاقر التي يرويها أهل القرية بأنهما اتخذا من ابن أخت لأبي يوسف ولدًا بعد وفاة أمه ، ثم زواج أبيه من امرأة أخرى كانت تعامل الغلام معاملة قاسية جعلته يهرب إلى البراري معظم النهار أو يتسكع في أزقّة القرية ما حرك أواصر القربى بينهما ، فأحب أن يحتضنه لينتشله من الضياع فلعله يكون ولدًا صالحًا ينفع أمّه الفقيدة بدعائه لها وبسيرته الحسنة في قريته. ذهب أبو يوسف إلى أبي الطفل وطلب أن يتولى تربيته عله يعوّضه عن الولد الذي حُرم منه، ففي قربه منه يشم رائحة أخته ، لكن الأب أبدى رفضًا، فألحّ أبو يوسف عليه مرارًا حتى تمكن من موافقته.

أخذ أبو يوسف الغلام إلى بيته آملاً أن يكون له سندًا ومساعدًا على مشاق الحياة ، فاهتم به وعمل على تربيته ، وعلّمه إدارة شؤون البيت والعمل في الأرض كفعل أي أب حنون ، كما حاول أن يعوضه عن الحيف الذي لحق به من زوجة أبيه من قبل. فلم يقصّر يومًا في شأن من شؤونه. ولما

قوي عود الصبي ودلف إلى مرحلة الشباب زوّجه ليستقر وينجب أولادًا يملؤون على أبي يوسف بيته، وليبعثوا فيه الحياة من جديد. كانت الأيام تمر سريعة فأصبح للشاب أولاد، كما تجمّع لديه بعض المال، فقرر ترك بيت من رباه متجاهلاً ما أسدي له، مقابلا إحسان خاله ومربيه إساءة وجفاء، مخيبًا الآمال التي عقدت عليه حتى إنه اختار سكنًا بعيدًا عن بيت خاله ليكون ذريعة ومبررًا عن قلة زياراته له. وكلما امتد الزمن كانت زياراته تقل، حتى وقت الزيارة نفسها تقلص بحجج يختلقها ليغادر. هذه الحالة نفسها لم تستمر طويلاً بل سرعان ما توقفت زياراته، ونسي أن له خالاً وحيدًا، كان يعتبره يومًا ولدًا له، قد أحسن له أيّما إحسان، وخلّصه من الضياع في صغره. كانت تمر على أبي يوسف وزوجه أيام وهما حبيسان بيتهما لا يقرع بابهما أحد من الناس. ولكم يكونان فرحَين إذا سمعا الباب يقرع، فيشعران بسعادة لا مثيل لها؛ لأن قرع الباب دليل على أنهما ما زالا يعيشان بين البشر.

ذات يوم توعكت امرأة أبي يوسف توعكًا شديدًا لم تفلح محاولاته في مساعدتها للحد من سوء تدهور صحتها، فخرج يستغيث الجيران الذين لبّوا نداء استغاثته وحاولوا إسعاف المرأة إلى أقرب مركز طبي، لكنها توفيت في الطريق فأعادوها... انتشر الخبر في القرية فهرع الناس إلى بيت أبي يوسف للقيام بالواجب من دفن المرأة، وتقديم العزاء بها مواساة لحال الرجل الذي غدا وحيدًا.

فكلما أقفر بيته من الزائرين أعطى العنان لنفسه وشرع يستعرض ماضيه ويتذكر شريكة حياته التي تركته وحيدًا، فينهمر دمعه حسرة وألمًا. كم مرة تمنى أن يلحق بها ليرتاح من الوحشة التي تحيط به، فزيارات الجيران وأولي القربى له بدأت تفتر يومًا بعد آخر حتى صارت لمامًا من أقرب الناس له، فزاد شعوره بالوحشة والوحدة، وتناوشته الهموم والغموم من مستقبل كئيب ينتظره مع مرور الأيام، وليهرب من معاناته تلك كان يخرج إلى البوابة، فيجلس أمامها عله يحظى بأحد المارة يقف غير مكتفٍ بالسلام،

فيسأله عن حاله أو حاجاته. ينظر يسارًا وشمالاً فيرى الجميع مسرعين يمرون من أمامه مكتفين بإلقاء إشارة التحية ليس إلا. فتزيد حسرته على ما آل إليه فكان خروجه كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

هذه الوحشة كانت تذكّره دومًا بكلام أمه التي حذرته غير مرة منها، وطلبت إليه أن يتزوج بأخرى فقد يرزقه الله منها ولدًا يدخره لمثل هذه الساعات الثقيلة التي طالما تذكّره بالماضي القريب وبفقده زوجه، وأمراض شيخوخته، وبافتقاره لمن يخدمه. هذه الحالة أثرت فيه نفسيًا وجسديًا وأنهكت قواه، فلم يعد قادرًا على المشي حتى يجلس أمام البوابة، ولما طال انقطاعه عن مجلسه تنبّه الجيران وراودهم القلق، فجاؤوا طارقين بابه، فلم يسمعوا أي حركة في الداخل، فاضطروا إلى كسر الباب لتكون المفاجأة حيث وجدوه جثة هامدة.

دسَّ أبو حامد يده في جيبه، وهو يكرر: وجدوه جثة هامدة، وأخرج ساعته نظر إليها وقال: مشايخي تأخر

الوقت كثيرًا ولدينا أعمال. سأكمل لكم في ليلة لاحقة... تعالت الأصوات : أكمل أكمل.. ماذا جرى بعد... نريد أن نعرف إن تزوَّج الرجل أم لا ؟ أجابهم : فكروا وتشاوروا بمصير الرجل. ما رأي شيخي أبا فيصل؟

# الفصل الثاني

شرع رواد المضافة يتخيلون ما سيفعله أبو الحسن بعدما علم مصير نظيره المأساوي مبررًا لما ذهب إليه ومحاولاً الإقناع به. ولَّما كثرت التوقعات ، وتباينت الآراء زاد شوقهم إلى معرفة الحقيقة من فم صاحبها. وكل يأمل أن يكون كلام الحكواتي مواتيًا توقُّعَه ليثبت صحة رأيه. ولَّما طال انقطاعه عن سهرات المضافة قلقوا ، وذهب بعضهم ليسأل عنه بيته للاطمئنان. فانقطاعه كاد يُنفد صبرهم فانعكس على تعاملهم فسرعان ما يثور أحدهم ويتعالى صوته ويحتد في نقاشه إن خالفه الآخرون. لكن الجميع متفقون على أن الخبر اليقين لدى الحكواتي الذي اكتشف أن تأخره سيزيد من شوقهم إلى سماع قصصه وليغدو جزءًا

من أحاديثهم في سهراتهم ، لأنه سيضع النقاط على الحروف.

جاء الحكواتي إلى المضافة بعد غياب طال انتظاره. فتنفس المراهنون الصعداء ، واستقبلوه استقبالاً امتزج فيه الامتعاض بالترحاب بما سيحمله من كشف للحقيقة التي غابت عنهم واختلفوا في تفسيرها. وكعادته حيّاهم ، وأخذ مكانه ، ثم بدأ من دون مقدمات :

- يا سادة يا كرام عاش صاحبنا أبو الحسن وقتًا عصيبًا وهو يتخيل تلك اللوحات المريرة التي تراءت له من حياة قريبه وما آلت إليه حاله وما استجرته من آلام لم يسلم منها أحد في القرية ، فالكل ملام على تقصيره تجاه أبي يوسف ؛ لهذا أخذوا عهدًا على أنفسهم ألا يتكرر إهمالهم لمن يعيشون في القرية منفردين أبدًا ، فرتبوا زيارات شبه يومية لعوائل القرية إلى منازل من تشبه حالتُه حالةَ أبي يوسف.

هذا المشهد المؤلم استعرضه أبو الحسن بلمحات ، فزاد من شحنات الألم الذي يعتصر فؤاده ، فأخذ يطوف في

جنبات الغرفة ويردد : ألا تخشى يا رجل أن يكون مصيرك ومصير هذه المسكينة كمصير عمك وزوجه؟

قطع شروده وخلوته مع نفسه صوت ينادي : أبا الحسن خير إن شاء الله ، لماذا تجلس وحدك يا بن العم ، هل أزعجك كلامي يا رجل؟

سماعه لهذا الصوت أراحه ، وأزاح عنه كابوس ذكريات مؤلمة كادت تحبطه وتضيّق الدنيا على سعتها أمام عينيه ، فسرعان ما قطع تجواله في جنبات الغرفة ونظر إلى الباب ليرى وجهها ، فلمح فيه هالة من البِّشْر وثغرًا باسمًا مده بشحنة من الأمل ، أعادت له شتات ثقة أوشكت أن تتبدد وتنفد. كانت عيناها مملوءتين حبًا حقيقيًا انتزعتا منه كلامًا جميلاً تتمناه الزوجة من شريكها بعد زواج طال عهده :

– لا عاش من ينْزعج منكِ يا أغلى ما لدي في هذا الوجود. أنتِ أحب الناس إلي ، تأكدي أنني لا أعيش من دونك.

هذا الكلام زاد من تصميمها على ما رسمته من قبل، وقررت تنفيذه على الفور... فقالت له:

- أبا الحسن لن أنتظر ردك، سأبدأ بالبحث عن عروس تناسبك مباشرة بإذن الله.

حاول الرجل ثنيها عن فعلها، لكنها أبت.

في اليوم التالي زارت إحدى جاراتها القريبات لها، وأسرَّت لها أنها ستبحث عن عروس لزوجها. تعجبت المرأة من عزمها هذا، وحاولت أن تزرع في نفسها الشكوك وإخافتها بأن مكر النساء وكيدهن شديدان:

- هذا العزم يا أم الحسن قد يسبب لك ضررًا ويفقدك زوجك مستقبلاً، فالزوجة الثانية - إلا من رحم الله - ستحاول الاستئثار بالزوج كليًا عندما ترزق منه أولادًا، وأنت لا أولاد لك، فالزوج في مثل حالتك سيكون متعاطفًا معها لأنه شغوف بمن جاءت له بهم، فستتغير عليك مع الزمن، وتؤلبه ضدك ليخلو لها... ساقت القريبة الجارة

لها سيناريوهات عدة ، لكن أم الحسن بقيت مصرة على عزمها بأن تخطب لزوجها مكتفية بالقول :

- الحب تضحية يا أخيتي ، فزوجي سعادته أن يداعب طفلاً من صلبه، ولن أحرمه هذه الفرحة إن كتبها الله له.

تعجبت قريبتها من تصميمها واضطرت إلى مجاراتها ، وشرعتا تبحثان عن فتاة تناسب أبي الحسن، فوقع اختيارهما على فتاة من قريباته تجاوز عمرها الخامسة والعشرين آملتين أن ترضى به زوجًا. فاتفقتا على الذهاب غدًا إلى بيت الفتاة لمحادثتها بالموضوع علَّها تكون شريكة لأم الحسن في زوجها فسُمعة الفتاة حسنة، وإن قلَّ نصيبها من الجمال.

ذهبت المرأتان إلى بيت الفتاة ، وفاتحتا أمها بالموضوع طالبتين منها عرضه على البنت لمعرفة رأيها ثم الأب شريطة أن يبقى سرًّا. وعدتهما الأم خيرًا وبأنها ستبلغهما الرد بمجرد استشارتها البنت والأب.

مضى أسبوع على حديثهما مع الأم التي تأخر ردها ، ففسرته أم الحسن بـــ"عدم القبول" وقررت العودة إلى جارتها ، وبدأتا تستعرضان فتيات القرية اللواتي فاتهن قطار الزواج واحدةً واحدةً حتى اتفقتا على واحدة متوقعتين موافقتها على الزواج من أبي الحسن بسبب ظروفها. فالفتاة تعيش مع زوجة أبيها التي تبادلها الكراهية ما جعل المرأة غير مكترثة بمشاعر الفتاة. فالأب خارج البلاد يعمل ليكسب عيش أسرته، لأنه لا يملك أرضًا للاستثمار في قريته، فبقاؤه فيها يحتم عليه أن يعمل أجيرًا بمبلغ لا يكفي لسد حاجات أسرته التي نمت وزادت حاجاتها إثر وفاة أم الفتاة، وزواجه بأخرى تكره الفتاة كرهًا لا حدود له على الرغم من قرابتهما. فلعمري إن أشد مايكون الظلم من ذوي القربى. ألم يقل الشاعر:

وظُلم ذوي القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند

عملُ الرجل خارج البلاد يقتضي بقاءه بعيدًا عن أسرته مدة قد تمتد إلى أكثر من ستة أشهر أحيانًا ، فعقد عمله يمنحه إجازتين اثنتين في السنة ، كل واحدة منهما لمدة خمسة عشر يومًا على أن تكون الأولى في منتصف العام والثانية في نهايته. يالَسعادة الفتاة الغامرة عندما يعود أبوها ، فحياتها تتغير كُليًا وتشعر بالأمن والأمان ؛ فعودة الأب تعيد إلى البيت استقراره وهدوءه وسكينته ، فلا صراخ ولا تأنيب ولا أذى لها من زوجة أبيها التي لا ترى فيها إلا خادمة. فإذا سألها أبوها عن معاملة زوجته لها أثنت عليها وشكرتها ، مظهرة خلاف الواقع ، فأدبها الجم يمنعها من أن تفشي ما يمكن أن يعكر صفو أبيها في أيامه إجازته المحدودة ؛ لذلك تتظاهر بالرضا ، فلا تشكو له زوجته مع أنها تذيقها الأمرَّين في غيابه.

أحد الأيام لاحقتها إلى خارج المنْزل ، لكن خوفها من افتضاح أمرها أمام الجيران جعلها تقفل راجعة.

اتفقت المرأتان على الذهاب إلى بيت الفتاة ، وهناك فاتحتا زوجة الأب بالموضوع ، وتمكنتا من الحصول على موافقتها بعد أن أبدت توجسًا وحذرًا ، لكن المرأتين بدّدتا تلك المخاوف كلها ، وتركتا لها مهمة إقناع الفتاة مشترطتين عليها أن يبقى الأمر سرًا بينهن.

أسعد هذا المشروع المرأة ؛ لأنه لم يكن في حسبانها من قبل فقد جاءها على طبق من ذهب ، ففي إنجازه تتخلص ممن تعكر عليها الحياة في المنْزل ، وتأخذ جزءًا من وقت الزوج الذي لا يأتي إلا لأيام معدودات لا تسمن ولا تغني من جوع. فشرعت ترسم خطة تمكنها من انتزاع موافقة الفتاة. فأول ما خطر على بالها أن تستعين بخالة الفتاة فقد تكون الأقدر على إقناعها ؛ فذهبت إليها في وقت فراغها ، وحدثتها بالموضوع. ولما حصدت موافقتها رجتها أن يبقى الامر سرًا بينهما وألّا تخبر الفتاة بأنها وراء الموضوع ، فلو عرفت الفتاة الحقيقة لرفضت.

في اليوم التالي أرسلت الخالة ابنتها لمناداة ابنة أختها ، والتي استأذنت زوجة أبيها في الذهاب إلى خالتها... خرجت الفتاة برفقة ابنة خالتها متجهتين إلى بيت الخالة ولما وصلتاه رحبت بها الخالة ، وعاتبتها على قلة زيارتها ، وسألتها عن أخبارها حتى امتد الحديث ووصل إلى الزواج، فسألت الخالة الفتاة إن كان في ساحتها أحد من الشباب ، ولما تأكدت من عدم انشغال الفتاة بأي من الشباب أحبت أن تشوّقها قائلة:

- لو جئتك بعريس فماذا تقولين؟

أبدت الفتاة حياء ، لكن الخالة مهّدت لها بأن الإنسان بفطرته يميل إلى تكوين أسرة، ولا يكون هذا إلا بالزواج، وفاتحتها بالموضوع ، وأظهرت كم الإيجابيات الذي ستحصده من زواجها وإن كان من رجل يكبرها بعشرين عامًا ومتزوج من أخرى.

أبدت الفتاة أولاً عدم الرضا والتوجس من مثل هذا الزواج، لكن الخالة بحكمتها قلبت لها الأمور حتى أزالت

معظم مخاوفها، مبينة لها أن المرأة زوجة الرجل نفسه جاءت لخطبتها، وهي عاقر، فلا أمل لها بالأولاد، كما أنها تتمتع بسُمعة حسنة، وتخاف من ربها كثيرًا، وقد وعدت بأن تعاملها كابنة لها إن حصل نصيب، وذكّرت الخالة الفتاة بأن زواجها سيخلصها من معاناتها مع زوجة أبيها، وبأن سنّها قد لا تساعد على مجيء خاطب مناسب مستقبلاً، فكل يوم يمر يقلل من فرصها... بذلت الخالة جهدًا كبيرًا مكّنها من انتزاع موافقتها. فباركت لها و قالت:

- يا ابنتي ألف مبارك لك، ربنا، يتمم لك بالخير. واسمحي لي أن أنقل لأصحاب الشأن موافقتك.

أخبرت الخالة زوجة الأب موافقة البنت على الرجل لتخبر زوجة الأب أم الحسن، والتي أسعدها الخبر كثيرًا، وتمنت على المرأة أن تقنع زوجها حتى يتم الزواج قريبًا.

أرسلت المرأة إلى زوجها رسالة تطلب فيها عودته إلى القرية للضرورة.

لم يمضِ كثير وقت حتى وصل الرجل فأخبرته زوجته بحيثيات ما جرى ، وأن الجماعة ينتظرون موافقته. رفض الموافقة على الزواج بسبب الفارق الكبير في السن بين الرجل وابنته. حاولت الزوجة تبديد مخاوفه ، وذكّرته بأن البنت تقدّمت سنها فربما لن يأتيها خاطب آخر ، فالوقت ليس في مصلحتها. وبإصرار منها وإظهار الإيجابيات مهما صغرت تمكنت من إقناعه ، فلما سمعت منه كلمة "على بركة الله" كادت تطير فرحًا ، فلم تصدق أن الليل سينقضي لتزف الخبر إلى منتظريه. فقبيل الظهيرة حملت نفسها وذهبت إلى بيت المرأة الخاطبة أم الحسن وأخبرتها بموافقة الأب. فرحت أم الحسن بالخبر واتفقتا على موعد يجتمعن فيه ليتأكدن من موافقة الفتاة وبحضور الخالة ، ودَّعت أم الحسن المرأة حتى الباب الخارجي ثم دخلت غرفة زوجها لتخبره بما آلت إليه مساعيها ، فأبدى امتعاضًا في البداية ، لكنها سخَّرت حكمتها في إقناعه وأخذت تنسج له بكلامها الحلو مستقبلاً مشرقًا سيعوضه ما فاته من حرمان الولد ،

وسيغدو إن وافق – بعون الله – أبًا يداعب وليدًا على صدره بعد سنة ليكون نعم الأب وستكون هي نعمت الأم.

هذا الكلام المعسول كان ينْزل على قلبه أحلى من الشهد لأنه يلمح الصدق في بريق عينيها.

لم يطل حوارهما فقال لها : ما دمتِ ترين ذلك مناسبًا فعلى بركة الله.

لم تكد تسمع قوله حتى طارت فرحًا. هذا المشهد أكّد له صادقها مئة في المئة ، ولن تتعكّر حياتهما إن جاءت لها شريكة.

في المقابل عرّجت زوجة الأب على بيت خالة الفتاة لتخبرها بموافقة زوجها ، واتفقت معها على موعد يجتمعن فيه مع البنت ليبحثن الخطوات الأساسية لإكمال الزواج.

بتوالي الموافقات ارتفع مؤشر فأل الخير في نجاح المساعي بزواج أبي الحسن.

في اليوم التالي استأذنت أم الحسن زوجها لتذهب إلى بيت العروس ، وفي طريقها مرت على صديقتها وأخبرتها بالتطورات الجديدة ثم رجتها أن تذهب معها. هناك التقَتا بزوجة الأب والخالة والفتاة ودار بينهن حديث مطول انتهى بموافقة الفتاة العلنية. باركن لها وأوكلن لزوجة الأب أن تخبر زوجها بما اتفقن عليه ليقوم كل فرد من الفريق بما عليه ترتيبًا للزواج المأمول ، والذي لم يتأخر إجراؤه غير إن الحضور في الحفل اقتصر على الحلقة الأقرب لكلا العروسين.

تزوج أبو الحسن من جديد ، فغمرت السعادة من حوله وعلى رأسهم المرأة الطيبة أم الحسن التي كانت بارة صادقة محتسبة. كانت تعامل الفتاة الزوجة الجديدة كما تعامل أم ابنتها. فلم تشعرها يومًا أنها ضرة ، بل زادت سعادتها أكثر عندما عرفت أن الفتاة حملت ، وبخاصة عندما لمحت كم البشاشة على وجه أبي الحسن الذي بقي كعادته بارًا بها صادقًا في معاملتها ، يبادلها الحب كما تبادله ، والذي تجلّى

بأنصع صوره يوم وضعت الفتاة ، فكانت أم الحسن الأم والخادمة والممرضة لها ، فرحة بالزائرة الجديدة ، تحنو على الرضيعة وعلى أمها ، حتى عمَّ خبر نُبلها القرية كلها ، فغدت مضرب المثل ، والأسوة الحسنة ، لكل أسرة تعددت فيها الزوجات.

كبرت البنت ، ورُزق أبو الحسن بأخرى ، فزاد قدومها من فرحة الأسرة جميعها ، ما أعطى صورة أنصع عن نبل تلك المرأة المحتسبة المضحية. لم يُسمع في يوم أنها اختلفت مع ضرتها أو عكّرت صفو المنْزل ، بل كانت أُمًّا للجميع بمن فيهم خالد الذي يتربى في منْزلهم ، فلم تشعره بأن اهتمامها بالطفلتين سيقلل من اهتمامها به.

استمرت الحياة باسمة لأبي الحسن تعطيه سعادة وانشراحًا ، حيث امتلأ بيته حركة وبهجة ودبَّت فيه الحياة أكثر بالقادمتين الجديدتين ، فهو يداعبهما بين يديه وعلى صدره غير مصدق أنه أصبح أبًا حقيقيًا بعد بوار طويل.

فأخذ يدعو ربه أن يستمر عطاؤه ويرزقه ولدًا ذكرًا ليكون سندًا لابنتيه في قابل الأيام.

لم يخطر على باله أن الأيام القادمة تحمل له مختلفًا عما سبق، إذ امتدت يدها ذات ليلة لتنْزع الفرحة من الأسرة، فقد أصيبت أم البنتين بمرض عضال أفقدها الحركة تمامًا فكانت أم الحسن على الرغم من تقدّم سنها تقوم بتربية ابنتي الأم وبتمريضها، إضافة إلى خالد، وتراعي زوجًا كبرت سنه، وزادت احتياجاته، فلم تهمل المرأة أيًا من واجباتها، لكن مرض أم الطفلتين تفاقم، فساءت حالتها الصحية كثيرًا، ولم يُجْدِ معها أي دواء تعاطته، فهي من سيئ إلى أسوأ، ليحل أخيرًا قدر الله وتموت، تاركة طفلتيها لأم الحسن التي رأت بهما رسالة وعطية من الله زادت إيمانها وإخلاصها له. واعتبرت أن أم الطفلتين في حياتها القصيرة معها ما كانت إلا كمن حمل لها فضل رب السماء ليعوّضها فقدها الأمومة، فها هو رب العزة يعوّضها باثنتين بدل واحدة، فكم كانت تضرع له من قبل أن يعطيها مولودًا

واحدًا مهما كان جنسه. فالطفلتان الصغيرتان لم تعرفا أمهما حق المعرفة، فهما دائمًا تريان أم الحسن ترعاهما، فديمومة رعايتها لهما هوّنت عليهما فقد الأم، ولم تشعرا كغيرهما من الأطفال بمرارة فقد أحد الوالدين، ولا سيما مع تفاني أم الحسن في تربيتهما وتنشئتهما تنشئة إسلامية، فلما وصلت البنت الكبرى إلى سن الكُتّاب أرسلتها إليه رغم اعتراض الأب بحجة أن الكُتّاب للذكور من دون الإناث، فتمكنت أم الحسن بحكمتها وحنكتها من إقناعه إذ بيّنت له أهمية أن تتعلم البنت كما يتعلم الولد.

ولم يقتصر دورها على إرسال البنت إلى الكتّاب بل كانت تناديها بعد عودتها :خدّوج، تعالي يا ابنتي نذاكر ما تعلّمتِه في الكتّاب، متظاهرة بالمعرفة، فإذا سألتها عن شيء لا تعرفه نادت (خالد) الذي سبق أن تعلم في الكتّاب ليأخذ مكانها، وأسرعت إلى شغل نفسها بأمور البيت كي لا تكتشف خدّوج حقيقة جهلها بالإجابة، فأم الحسن تحفظ

بعض السور القصيرة من القرآن والتي كانت تساعدها على تحفيظ خدوج أحيانًا.

انقضت فترة الكتّاب وحصّلت خديجة بعض العلوم التي تفيدها في حياتها ، ومن قبلها خالد تخرّج من الكتّاب ، ولما بلغ سن الثامنة عشرة رغب في أن يلتحق بالجيش متطوعًا فلا رغبة له في العمل مزارعًا. قدم أوراقه الثبوتية لمركز من مراكز الجيش ، كما أجرى الفحوص الطبية بنجاح ومثلها اختبار القراءة والكتابة ؛ ما أهّله ليكون عنصرًا في دورة الأفراد ، التي استدعي لها بعد فترة وجيزة.

غادر القرية ليبدأ حياة جديدة حالت بينه وبين قريته وأهله. فكلما طال غيابه عنهم اشتد اشتياقه لهم ، لأنه للمرة الأولى يعيش بعيدًا عنهم. كان ينتظر إجازته الأولى بفارغ الصبر ، والتي لن تحصل قبل مضي ثلاثة أشهر من التحاقه بالدورة. عانى خلالها مرارة التدريب ومكابدة الشوق... وأخيرًا جاء الفرج فمنحت المدرسة منتسبيها إجازة

استعدادًا لاختبار نهاية الدورة، والذي سيؤهلهم للعمل في قطاعات الجيش.

ذهب خالد في الإجازة إلى القرية متشوقًا لأهله، ولما دخل الدار على أمه أخذته بحضنها وضمّته إلى صدرها وشرعت تقبّله كأنه طفل صغير، ومثلها فعل أبوه. لم ينسَ خالد أمه الثانية أم الحسن وعمّه اللذين استقبلاه بحرارة شبيهة بلقاء أبويه.

أمضى خالد في القرية أسبوعًا يذاكر للاختبار النهائي كان فيه يتردد أحيانًا على بيت عمه الذي شجعه على المذاكرة عله يحظى بترتيب متقدّم يؤهله للخدمة في قطعة قريبة منهم، لكن الجديد في حياته أن ابنة عمه خديجة لفتت نظره فغدا معجبًا بها، فكلما زارهم ضيَّفته بنفسها، فكان يسترق النظر إلى حركاتها، ما لفت نظرها هي الأخرى. هذا الاهتمام بحركاتها ولّد لديه شعورًا غريبًا لم يجرؤ على البوح به. فالبنت تصغره بخمس سنوات وربما لا تبادله الشعور نفسه، كما يخشى أن يفهمه عمُّه خطأ ويظن به

الظنون وهو من تربّى معها منذ صغرها ، وعاشا في بيت واحد، ومرات ومرات خرجا معًا إلى الحقل باعتبارها أختًا.

غادر خالد القرية مشتتًا بين ما يجيش في نفسه تجاه خديجة واستعدادته للاختبار الذي يتطلب منه تركيزًا ليحقق لعمّه طموحه الذي قد يكون الخطوة الأولى في تلبية شعوره الطارئ.

اجتاز امتحانات الدورة وحصل على مرتبة متقدمة بين زملائه فتنفّس الصعداء وارتفعت معنوياته ما جعله يفكّر في مفاتحة عمه برغبته في الاقتران بخديجة إن كان فرزه قريبًا من منطقتهم، لكن الفرز أخذه إلى مكان بعيد خيب أمله. فعزّم على أن يثبت كفاءته في عمله علّه يتقرب من رئيسه. وبالفعل مع مرور الأيام توالت إنجازاته التي استجرت له فرصة الحصول على إجازة لمدة أسبوع من دون الآخرين. كان شغوفًا بتمضيتها في بلدته بين أهله وليرى خديجة.

توالت الليالي ، فمضى على خدمته عامان في قطعته البعيدة ، لكنه أثبت خلالهما تميزًا أكسبه ثقة آمر المعسكر

الذي يكافئه في نهاية كل عمل بإجازة يعود فيها إلى القرية. كان خالد يقص على عمه في إجازته ما يجري له في المعسكر ليؤكد تميزه وطمعًا فيه كوسيلة تمكنه من مفاتحته بما يجيش في نفسه ، آملاً أن تساعده الظروف في كشف مشاعر خديجة تجاهه. لكنه علم من أهله أن غير خاطب جاؤوا أباها راغبين في مصاهرته ومصاهرة أم الحسن القدوة في القرية. لم يبدِ أبو الحسن قبولاً لأحد منهم ، لأن هواه أن يزوجها خالدا الذي تخرّج في دورته عريفًا في الجيش، كما أنه خَبِرَه من قبل كطفل وصبي وشاب.

هذا التوجه لاقى استحسانًا من أم الحسن التي أيّدت الفكرة ؛ فهي ربّته منذ صغره فتراه الأصلح لابنتها خديجة.

في هذه الأثناء لاحظ أبو خالد تردّد ابنه على بيت عمه كلما جاء القرية في إجازة، فأراد أن يسبر أعماقه ليكشف رغبته إن كان يرغب في ابنة عمه، ففاتحه بالموضوع، فأظهر خالد حياءً وترددًا ، لكن أباه ألحَّ عليه وأخبره بأن الفتاة يأتيها خطّاب فيخشى أن يوافق أخوه أبو الحسن على

أحدهم فيخسر خالد الفتاة. لم يطل تردد خالد فطلب من أبيه أن يخطبها له.

ذهب أبو خالد إلى بيت أخيه، وفاتحه بالفكرة التي جاءت مواتية لما تمناه أبو الحسن من قبل. وافق الرجل على طلب أخيه واتفقا أن تكون الخطبة رسمية يحضرها أهل القرية.

حصلت الخطبة الرسمية، وجرى ما بعدها على ما يرام، ليتم الزواج أخيرًا، حيث شارك في إحيائه أهل القرية. وغدا خالد زوجًا لابنة عمه. ولما انتهت إجازته غادر القرية ملتحقًا بقطعته العسكرية تاركًا عروسه في بيت أبيها بعض الوقت حتى يرتب أوضاعه.

استأجر بيتًا يتلاءم مع وضعه المادي، وفرشه في ضوء إمكاناته المتواضعة، ثم أخذ إجازة يومين ليأتي بزوجه.

عاش خالد وخديجة أجمل أيام عمرهما، فكلما مُنح خالد إجازة عاد إلى القرية مع زوجه ليقضيا أيامها بين أهلهما.

في إحدى المرات شعرت خديجة بدوار ، ثم تلاه صداع فترجيع ، شكت معاناتها إلى أمها أم الحسن التي بشّرتها بأن هذه الأعراض توحي بالحمل ، وأوصتها بأن تتحمل فمع الزمن ستزول هذه الأعراض. حمل خديجة أفرح الجميع.

سارت الأيام سريعة كالعادة ليحل يوم وضعت فيه خديجة طفلاً أسمته على اسم أبيها ، ثم أتبعته بعد سنتين أو أقل ببنت أسمتها على اسم أمها وخالتها ومرشدتها أم الحسن إكرامًا لها.

لكن بقاء الحال من المحال ، فقد حمل بريد القطعة العسكرية قرار نقل خالد إلى قطعة عسكرية بعيدة ، ما اضطره إلى إعادة زوجته وولديه إلى بيت أبيها ؛ لأنه لا يملك بيتًا خاصًا به في قريته.

التحق خالد بقطعته الجديدة البعيدة التي أثّرت في تردده على القرية فغدت عودته لمامًا لا تتجاوز في السنة مرتين. استمر على هذه الحال أكثر من سنة كان خلالها يسكن في المعسكر فأراد أن يخفف من ضجره ووطأة بُعده عن أهله

فاستأجر غرفة في إحدى القرى القريبة من المعسكر آملاً أن يأتي بأسرته، لكن الأمور تغيّرت بتعرفه إلى ابنة الجيران التي كانت تبادله الأحاديث كلما جاء إلى البيت، وتقوم بخدمته فأعجب بها حتى تمكَّن حبها من قلبه، فتقدم إلى أهلها يطلب يدها، فاشترطوا عليه أن يطلِّق زوجته. رفض في البداية وحاول مقاومة مشاعره، لكنه ضعف ولم يعد يفكر إلا بحبه الجديد، فكلما جاء إلى غرفته لمحها فتهش له ويهش لها حتى نسي ولديه وزوجه. فعندما حان وقت إجازته الاعتيادية لم يطلبها بل بقي مستمرًا على الدوام لأكثر من عام، كان خلاله مشتتًا بين شوقه لأسرته وحبه الجديد، فآثر الأخير وخضع لمطلب أهلها فأرسل جوابًا إلى خديجة ومعه قسيمة طلاقها.

كان وقع الرسالة مخيبا للآمال ومؤلمًا على الأسرة الممتدة وأهل القرية، فقد رأى فيه الجميع جحودًا كبيرًا ونكرانًا لجميل من ربَّاه وعلَّمه وأعطاه فلذة كبده، وضحَّى من أجله وما زال يتكفل رعاية زوجه وولديه. فأقل ما يُقال

عن تصرفه : إنه قمة النذالة والخسة والأنانية ، فخديجة قبل زواجها منه تقدم لها الكثير من شباب القرية ، لكن أباها فضَّله عليهم جميعًا.

مثَّل هذا التصرف لخديجة صدمة نفسية قاسية ، فهي لا تصدق ما وصلها من زوجها ، فعاشت ردحًا من الأيام حزينة متألمة ، إلا أن أم الحسن بحكمتها وصبرها وقوة إيمانها تمكنت من إخراجها من هذه المعاناة ، وجعلتها ترى فيه ابتلاءً لا بد لها من الصمود في وجهه. ففكرت مليًّا ، وتعالت على جراحها ، وقررت أن تتحداه ولن تسلم زوجها ولديها مستقبلاً إن طلبهما ، وستقصر حياتها على تربيتهما على الرغم من تقدم بعض الشباب للزواج منها ، عارضين استعدادهم تربية البنت والولد ، لكن خديجة المكلومة رفضت ، وأرادت تنفيذ تعهدها ، وحبست نفسها لهما. فلجأت إلى العمل بأرض أبيها كونها الوسيلة الوحيدة التي تمكّنها من تحدي طليقها في كسب رزق أسرتها. فأول عمل قامت به أن استرجعت الأرض من ضامنيها. وشرعت

تعمل كأي شاب اعتاد على حراثة الأرض، وسقاية الزرع ومراعاته. كانت حريصة على إتقان عملها فلم تفوت فرصة إلا واستفادت منها مستعينة بربها ثم خبرة أبيها مستشارها في كل شاردة وواردة مهما صغرت، فلم تفرط بشيء مما ينصحها به. فهو أصلاً يعمل فلاحًا.

هذه الاستشارات، وكم الرغبة في النجاح بالتحدي، وهمة عالية، وإتقان في العمل؛ عوامل تعاضدت وأعطت إنتاجًا متميزًا أكسبها خبرة وبعث فيها الحماسة التي نمت مع الأيام، وساندها رغبة جامحة في النجاح والتحدي لمن أنكر الجميل، ولمطالب لا بد من تنفيذها حتى تستمر حياة أسرها الممتدة طبيعية... كل يوم يمر على عملها في الحقل يكسبها خبرة وحُسن إدارة عززهما ريع محصولها الذي جاء مجزيًا. فلما سلمت الدفعة الأخيرة منه للمشترين؛ أجرت حسابًا كليًا فوجدته يفوق مأمولها بكثير، فبه نسيت كل تعبها ومعاناها، فقد مكّنها من سد حاجات أسرها، بل زاد عن حاجاها بفضل الله.

عاشت أيامًا سعيدة بعد حصر الحصيلة النهائية لجهدها، فشعرت بتفاؤل لحمته وسداه أن موسمها الآتي سيكون ذا ريع أكبر وأوفر بما يمكّنها من أن تحتفظ بجزء منه كرصيد لقادم الأيام التي لا يُؤمَن غدرها، فمن يضمن أن تبقى الظروف على حالها فربما تتغير بسبب المناخ أو تكون الأسعار أقل فلا يغطي الريع حاجات أسرتها! عندها تمد يدها إلى رصيدها لتأخذ منه ما تحتاج إليه، لذلك مجرد انتهاء الموسم وضعت نصب عينيها هدف الارتقاء بالإنتاج ليحقق طموحها، فنسجت مع أرضها علاقة تبادل منفعة، فهي ستبذل أقصى ما لديها من جهد مسلّحة بخبرة ممزوجة بتفائل عريض ورغبة في العمل مقابله أن تعطيها الأرض كل ما عندها من خير ليكون زرعها مثالاً يحتذى.

فجعلت سلوكها اليومي العطاء للأرض ثم العطاء. فبرت بعهدها فلم تقصر يومًا ولو كان على حساب أسرتها. فردّت الأرض جميل خديجة بأن كان نبتها متميزًا. فكلما نظرت إلى حقلها زادت رغبتها في خدمة الحقل رعاية

ومتابعة دقيقة وتعشيبًا وسقاية وتسميدًا ورشًّا لقتل الحشرات أولاً فأولاً. برنامجها في السقاية كان مضبوطا فكل خمسة عشر يومًا تكون على موعد السقاية، فلا تفوت الموعد مهما حصل. هذا النظام اعتمدته في عهدها مع الأرض، فلا تتلكأ مهما كانت ظروفها المنْزلية.

وكعادتها في موعد سقايتها الأخيرة ذهبت مساءً إلى الحقل حتى تتسلم المضخة من جيرانها استعدادًا لليوم التالي فملأت الخزان بالوقود ، وكشفت على ماء التبريد ، وتفحصت خراطيم المياه، ولما تأكدت من جاهزية المضخة حملت يد التشغيل معها إلى البيت.

في صباح اليوم التالي خرجت خديجة مبكرة إلى الحقل. هناك وضعت حاجاتها في خيمة بسيطة نصبتها خصيصًا لتكون محطة راحتها ومخزن حاجاتها، ثم اتجهت إلى المضخة، في طريقها نظر ت إلى الحقل فاستهوتها نضارة مزروعاته التي تتعارك مع رياح خفيفة تهب عليها بين الفينة والأخرى مداعبة فترد متراقصة في مشهد نابض بالحياة بعث الغيرة في

أم الكون التي بدت كطفلة جميلة تصحو من نومها توًّا ، تمسح عينيها لترى من أيقظها ، ثم تعالت على رغبتها في الرقاد ، فنهضت لتتابع ما ترتب عليها ، فأول ما قامت به أن أرسلت إلى النباتات النضرة خيوط شعاعها الذي أضفى على النباتات جمالاً خلابًا.

هذا المنظر المتآلف المتناغم نسج لدى خديجة رهبة ملفوفة بالاطمئنان للقادم من الأيام. حاولت كشف كنه ، لكنها لم تفلح ، فأعادت النظر ثانية وثالثة حتى كادت تنسى عملها الأساسي لتبقى تمتّع عينيها بجمال فاق تصورها وتوقعاها ، وولّد لديها تفاؤلا ملأ عطفيها بأن موسمها الحالي سيكون أفضل من سابقه ، ثم تذكرت مهمتها فهرعت مسرعة إلى المضخة ووضعت يد التشغيل في أسطوانة المضخة ثم جذبتها بسرعة ، فصادف ذلك هبة ريح قوية سلبت جزءاً من حجابها وقدمته لشريط المضخة الذي بدوره التقم رأسها وسحبه معه ليرتطم بالبكرة الحديدية نفسها ما سبب شرخًا فيه. نفر دمها نازفًا ، ولما رأته

صرخت مستغيثة، فهرع إليها جيرانها، فهالتهم غزارة الدم النازف، فحملوها على عجل إلى القرية ثم المدينة، ودمها يَنْزف على الرغم من محاولاتهم التي حدَّت بعض الشيء منه.

ولَّد خبر إصابتها في القرية حزنًا شديدًا وتأثرًا بمصابها، ودعوا الله أن يعافيها، لكن تأخر وصولها إلى المشفى أسهم في تدهور صحتها بسبب نزف دمها، وعدم استطاعة الأطباء في تعويضه، فلفظت أنفاسها الأخيرة.

وقع خبر الوفاة كالصاعقة على أهلها، وترك عليهم مسحات حزن لفَّت القرية كلها، وجعلت الجميع يترقب وصول جثمانها ليقوم بالواجب.

لم تشهد القرية من قبل مشهدًا يجتمع فيه أهلها كما حصل في مأتم خديجة، حيث تجلّت وحدة المشاعر واضحة في موكب تشييعها من هول الصدمة التي حلّت بالقرية. وقد ضاعف المأساة أكثر إصرار أبيها المفجوع على إنزالها في لحد أمها ضيفة عليها. إن فقده لخديجة المفاجئ نكأ

جراحات أثخنته وضاعفت آلامه ولاسيما جحودُ طليقها – ابن أخيه – الذي بُلِغَ بخبر الوفاة وآثر عدم الحضور.

هذه الجراحات المتعاقبة انعكس أثرها في نفسية أبي الحسن فانطوى، ولزم بيته. ولم يعد يشارك بأي عمل جماعي حتى السهر في مضافة عائلته جفاه. خاف عليه أصدقاؤه ومحبوه فجاؤوا مذكّرين إياه بمصائب أعظم من مصيبته كالتي حلت بخير البشرية، مستشهدين بفقده بناته الثلاث في حياته، وصبره واحتسابه. تكررت محاولات محبيه، فأثّر كلامهم فيه وداوى بعض جراحه فكلما سمع قصصهم وعِبرهم ذكر الله وأناب إليه، لكن أكثره تأثيرًا فيه يوم سألوه: ألست محبًا لخديجة وعهدها؟ أجاب: بلى، أفي ذلك شك؟ قالوا: إذن ابررْ بما عاهدت ربك ثم عاهدتها عليه. وذكّروه بقوله عند رأسها مسجّاة: يا ابنتي إني أشهد الله وأعاهدك أن أربي ولديك كما أحببتِ ما دمتُ حيًّا.

هذا حرّك مشاعر الوفاء لديه، واضطره على الرغم من كبر سنه لأن يخرج إلى الأرض، ويتابع ما بدأته خديجة منذ بداية الموسم.

عانى الرجل في البداية صعوبات كثيرة، لكنه مع الزمن تجاوزها، ووجد في الأرض شاغلاً له عن همومه، ومخرجًا يمكنه من شغل حفيده الصغير الذي كلما تذكَّر أمه بكاها بكاءً شديدًا يقطّع نياط القلب، فلم يجد أبو الحسن وسيلة أفضل من اصطحابه إلى الأرض وإشغاله ببعض الأعمال البسيطة حتى تتوارى الشمس بالحجاب.

رعى أبو الحسن الطفلَ وأختَه حق الرعاية، وكانت أم الحسن تساعده حتى يعوضاهما حنان أمهما التي أقسمت من قبل أن تقصر حياتها وكيانها وكل طاقتها من أجلهما فهما رمز الحياة لها. وكما قيل: رب ضارة نافعة، فالله جلَّت قدرته منح الرجل الكبير الذي تجاوز السبعين عامًا قوة في بدنه وصحة في جسده ليتابع ما بدأته ابنته من عمل شاق في الأرض. فكان يخرج مبكرًا ليعمل بنفسه فيها مستفيدًا من

مواسمها التي أشعرته بأن الفرق كبير بين ريع تأجيرها الآخرين واستثمارها الذي كان ذا مردود حسن يغطي مصاريف أسرته التي تزداد، فها هو محمد وصل سنًّا تؤهله دخول المدرسة الابتدائية التي تتطلب منه مصاريف إضافية. كم كان أبو الحسن فرحًا، وهو يمسك بيد حفيده، ليأخذه إلى المدرسة في يومه الأول، وبقي في عين المكان حتى اطمأن على دخوله للصف. أمّا أم الحسن فكان دورها أهم فهي حريصة على متابعته أولاً فأولاً ليكون متفوقًا على أقرانه، وبالفعل أثبت الطفل تفوقًا بيّنًا جعل معلميه يحبونه حتى كلّفوه مهام من دون غيره من التلاميذ ما حرّك الحقد والحسد في نفوس أبناء عمومته وجيرانه فاتهموه بأنه يبلّغ المعلمين عنهم إذا خرجوا للّعب بعد انتهاء الدوام. إذ لاحظ المعلمون تحصيل الطلاب متدنيًا، فأحبّوا رفع مستواهم التعليمي، فكلفوهم واجبات منْزلية كشفت إهمال التلاميذ للمذاكرة، وانصرافهم عنها إلى اللعب، فارتأى بعضهم أن يحدّوا من لعبهم وبخاصة الضِعاف

والمتوسطين منهم ، فهددوهم قائلين : من لم يقم بواجبه ويحفظ دروسه فإن ورد اسمه بين أسماء الذين يلعبون في الأزقة فسيعاقب أمام الطلاب صباحًا ويحرم من العودة ظهرًا للغداء.

هذا التوجه جعل كثيرًا من التلاميذ يخفِّف من لعبه في الأزقّة خشية أن يُقرأ اسمه صباحًا فيعاقب أمام الجميع ضربًا بالعصا ، أو يُحرم من فرصة الغداء ظهرًا فيبقى في المدرسة حتى عودة زملائه من فرصة الغداء. فإن تكرر اسمه ثانية تضاعفت عقوبته. لهذا بدأ الأشقياء ممن عوقبوا يبحثون عمن دلّ عليهم ، وأفشى سرّهم. ففي كل حارة كلف المعلمون تلميذًا مجتهدًا يقوم بهذه المهمة متخفيًا ، وليبقى غير مكشوف لجؤوا إلى تغييره بين فترة وأخرى. فالغيرة والحسد تحركتا لدى أبناء عمومة محمد فاسمه لم يرد أبدًا بين لاعبي الأزقة ، فشكّوا به وزاد شكهم عند ثناء المعلمين الدائم عليه في الطابور الصباحي على مسمع الجميع ، جاعلين منه قدوة في أخلاقه واجتهاده. وأكثر ما يؤجج غيرتهم الممزوجة

بالكراهية تكريم المعلمين له بعد كل اختبار لتحصيله الدرجات التامة. خبر تفوقه وتكريمه وصل منازل القرية ما ألَّب النفوس المريضة العامرة بالحقد والضغينة من أبناء عمومته وأبناء الجيران عليه.

فإذا أراد أب أن يثير همّة ابنه للتحصيل العلمي قال له: انظر إلى محمد أين أنت منه، ولد لا أب ولا أم ومع ذلك يتفوق في دراسته؟ إنك فاشل ومهمل لا تستحق شيئًا، اذهب وارع البقر هذا مستقبلك إن لم تقتد بمحمد وتكن مثله.

كان وقع هذا الكلام مؤلمًا في نفوس أقران محمد وبخاصة من أقاربه. فحرّك لديهم الكراهية أكثر من ذي قبل، وجعله في نظرهم عدوًا، سواء أكان في المدرسة أم الحي، فأخذوا يفكرون في إيذائه للنيل منه، وإيقاف مسيرة تفوقه. فذات يوم جلس بضعهم يتحدثون عن مقدار الأذى الذي لحقهم بسببه، وأدلى كلٌّ برأيه، إلى أن اتفقوا أن يدعوه

للعب ويجعلوه يخطئ ليستغلوا خطأه فيضربوه ضربًا مبرحًا يشفي غليلهم، ويكسر أنفه أمام أبناء الجيران.

شرعوا ينفذون مخططهم أولاً بالتقرب إليه والتودد منه بغية كسب ثقته فيهم ، واستمروا أيامًا على غير عادتهم فاطمأن محمد لهم ، ولما شعروا بأن مخططهم بدأ يؤتي أكله طلبوا إليه أن يشاركهم في لعبهم...

هنا توقَّف أبو حامد عن الكلام.

# الفصل الثالث

أحيانًا يضمِّن أبو حامد حكايته لُغزًا يتحدى به رواد المضافة. هذه المرة جاء لغزه في نهاية سهرة طالت ، وقد ساقت لهم النعاس إضافة لأعمال شاقة تنتظرهم غدًا تتطلب منهم أن يستيقظوا مبكرين لإنجازها ؛ لذلك أخذوا ينسلون من المضافة الواحد بعد الآخر مكتفيًا أحدهم بكلمة تصبحون على خير.

هؤلاء المتعبون المنهكون جسديًا ما إن تلامس أجسادهم فرشهم حتى يستسلموا للنوم الهانئ العميق. ولم لا يكون هذا ؟ إنهم يعيشون في جو صحي طبيعي وفّرته لهم بيئة جبلية تحيطها الأشجار ، فإذا هبت عليها نسائم الهواء الندية انتعشت وتراقصت أغصانها متمايلة لترسل لجيرانها نسائم تشفي العليل من مرضه ، فالأشجار مغروسة في أرض

مرتفعة عن سطح البحر بما لا يقل عن ألف متر ، كما حرص السكان أن يجعلوا غرف نومهم مشرّعة السقوف ، النوافذ فيها من دون السقف بقليل ما يسهل دخول الهواء المنعش الذي يمحو كل مظاهر التعب التي ألّمت بأجساد أنهكها عمل النهار ، فواحدهم ينتظر بفارغ الصبر قدوم سكون الليل ليمحو له تلك المظاهر ، ليعود إلى جسمه نشاطه وحيويته.

إنهم يعيشون في بيئة سكون ليلها يضفي عليها وقارًا وهيبةً وجمالاً ، كونها تتكئ على صدر جبل تحدّى الشمس من قبل. جاؤوا إليه وجفين هلعين من أماكن بعيدة بعد أن اختلفوا مع جيرانهم وسالت الدماء بينهم ، فآثروا اللجوء إليه طامعين في حمايته ، فسكنوا كهوفه التي فتحت لهم قلبها مرحّبة ووَقَتْهم شر أعدائهم ، لكنهم أطالوا البقاء وامتد بهم الأمد ، فسولّت لأحدهم نفسه أن يتحدى مضيفه فتجرأ ونهب جزءًا من جوف الجبل ليشيِّد به بيتًا على صدر الجبل يخلصه من الإقامة في الكهف ، ولما لم يحرك المضيف ساكنًا

تمادى الآخرون وقويت شوكتهم فاقتدوا بفعل صاحبهم فراحوا ينهشون في غير مكان متخيلين أن سكوت الجبل ضعف وقلة حيلة، ولم يخطر لهم أن الجبل الأشم استأنس بصنيعهم الجميل الذي أحدث في جنباته منازل غدت آية من آيات الجمال، فاستهواه جمالها ورغب في المزيد.

إنْ نظر الرائي إلى تآلف بيوتهم لمح مقدار الجمال الذي تتمتع به على الرغم من تطفلها واعتدائها على مضيفها، فهي تستلقي بثقلها على بطنه متغنجة بدلال طاغ بإطلالتها على ثغره الباسم الذي ينساب عبره ماؤه الزلال مسرعًا متلهفًا الوصول إلى مأواه الأخير في الغوطة الغنّاء، ليرى جمالها من قرب. فطالما سمع عنه، لكن من يسمع ليس كمن يرى. هذا التناسق العمراني في بيوتات القرية وتآلفها مع مضيفها الذي يحتضنها في جزء من ثغره الباسم، بينما سمح في الجزء الآخر من ثغره بتسلل نهر متعرج كحية أسرعت سيرها لتجهز على فريسة تحاول الفرار بنفسها، كما تغطّي ضفتيه أشجار كأنها أهداب تطول وتطول باسقة نحو عنان

السماء ظانة أنها قادرة على مصافحته، وتزيّن ضفتيه أيضًا نباتات أخرى لا تقوى على التحدي فهي ذات مشاعر رهيفة لطيفة، إن هبت عليها نسيمات الهواء الخفيفة داعبتها واستجابت لها وعزفت معها سيمفونية تزيد المشهد جمالاً وروعة واتساقًا.

في هذه الطبيعة الغنّاء أحسن اللاجئ الخائف إبداعًا وابتكارًا لبيوتاته، فمزج في بنائها بين حجر وافد أزرق مع حجر أبيض انتزعه من قلب الجبل الذائب هيامًا بعدما أسر لبَّه جمال البناء فخارت قواه وهو يرى عزم رجال ردّ لهم أمنهم وأشعرهم برجولتهم فاستخدموا سواعدهم المفتولة التي عالجت صخوره الناتئة المشوهة لشكله، تقطيعًا وتهذيبًا لتغدو شكلاً آخر مغايرًا تمامًا لأصلها، فالبناؤون يضيفون إليها زخارفهم الجميلة النابضة بالحياة وبما تفتقت عنه أذهانهم من رسومات ملائمة للبيئة الجبلية لتصبح جزءًا منها ومن معالمها، فتراهم يتنافسون في تصاميمهم المختلفة التي شكلت منظرًا جديدًا نتج عن تداخل اللون الأزرق للحجر

الوافد من الجولان ، فتماهى لونه مع اللون الأبيض المولد من صخر الأشم فشكّلا هجينًا مغايرًا للمألوف. هذا التمازج الخليط ، وإن قلّت نسبته ، لكنه أحدث تغييرًا واضحًا في المظهر الخارجي للمنازل المشيَّدة، وكسر الرتابة في البنيان ، ما يشعرك أن رُعاة البناء والنماء في القرية شاؤوا التغيير ، فأبدعوا وجمّلوا المظهر ليكون التغيير محمودًا مرغوبًا مطلوبًا كتغيّر الرياض مع كل ربيع. واسمع إلى قول أبي تمام :

أولا ترى الأشياءَ إنْ هي غُيِّرتْ

سَمُجَتْ وحسن الروض حين يغيّر

نظرة خاطفة ممن يزور تلك المنازل الناشئة التي تتزاحم على صدر الجبل وفي بطنه، فاردة عضلاتها كأنها أقوى من محتضنها نفسه ، يرى كم دخلت جدرانها في قلبه بلا استئذان وبقوة، فهي تشعرك أن الجبل الأشم لا رغبة له في دفعها بعيدًا لتذهب إلى قاع النهر فقد تعايش معها ، فأخذت تمتد أفقًا ورأسًا فلا تترك له فرصة التراجع عن

قبولها واعتبارها جزءًا منه، فالذي يحصل له وأمام ناظريه هو تجديد وإعادة لروح الشباب التي غادرته منذ فترة حتى كاد ينسى ذكرياتها من كثرة ما يأتيه من مخلوقات تشكو إليه تناقضاتها من بشر يطرحون بين يديه همومهم وغمومهم وابتلاءاتهم فيما بينهم ومصائبهم التي حلّت بهم. إنه يصغي للجميع ولا يتذمر من كثرة شكاويهم؛ لهذا تسلل إليه نسيان ذكريات شبابه، فاستسلم إلى الصفة التي أطلقها عليه زوّاره بأنه (كالشيخ الوقور) فاضطر مع هذا اللقب ألّا يتصرف تصرفًا يسيء لوقاره.

أكوام الذكريات وشكاوى الزوار من كل حدب وصوب، وقبوله بما آل إليه من حاضن للبيوت التي تنبض بالحياة في جنباته جعله يتكئ إلى الخلف ليرتاح حتى لا يعكر مزاج زائريه. إن وافديه من بني الإنسان لم يرضوا إلا السكن في حضنه الدافئ، طلبًا لحمايته وطمعًا في خيره العميم آملين منه أن يدفع عنهم كل ضير، فكلما استشعر سكانه فتور همته وقدرته على المقاومة زادوا من جرعات

الجمال التي يزهو بها ، فهو يتلمس منها تغييرًا إيجابيًا أكسبه جمالاً لم يكن في لحظة من الزمن يتصوّره. هذا الجمال ناشئ من تداخل الحجارة وتنافسها ، فكل حجر يود أن يظهر جمال لونه أكثر من غيره ، وهمه أن يرسل لمن ينظر إليه أن تنافسه المتناقض مع غريمه الحجر الآخر هدفه تجميل المنظر ، وعكس غير المألوف ، ليفرزا جمالاً رائعًا يتجسد بالبيوت المشيّدة على سفح الجبل ، فمن يدقق في جدار أي بيت يلمح الجحر الأساس ممسوكًا بالحجر الوافد بخيط إسمنتي رفيع للغاية. هذا الخيط الإسمنتي كاد يختفي بينهما ، فلم يعد يعرف إلى أيهما يذهب بعدما ذاب شوقًا فيهما على الرغم من لونيهما المختلفين؟ فكلا الحجرين يتغنّج ويقول للخيط : لا يهمني إن ذهبت إلى جاري فسيعطيك جزءًا من مبتغاك ، أما جزؤك الآخر فهو عندي فلا فكاك لك عني إن رغبت في تحقيق مرادك وغرضك وإلا أزالك البناؤون نهائيًا. ألا تراهم متغولين هذه الأيام في أعمالهم؟ فالزائر يستمتع ويمتّع مقلتيه برؤية الجبل العامر بالبنيان المتواصل ، إشادة أو

كسوة أو سكنى. قد تسمع صوت حفّارة تنهش الصخور، فصوتها نشاز في هذه البيئة المتآلفة، إضافة إلى ضربات العمّال وهم يقطعون ما جادت به الحفّارة إلى أحجام أصغر فأصغر حتى تتمكن الآلات من قضمها وهضمها والتلذذ بها ثم تلفظها مادة بيضاء اللون يسميها أهل المنطقة بـــ(الرمل) حيث يتكوّم أمام فم الآلة ليأتيها المفسد الأول فيأخذها بعيدًا بعيدًا عن قلب حاضنها المتألم من نهب بطنه تاركة فيه حفرة فارغة تنمو يومًا بعد آخر، فيوحي لك هذا النمو كم المرارة التي يعانيها الجبل من جراء الجروح الغائرة في بطنه، لكن سلواه أن ندوبه تلك ستملأ بالعمارات، لهذا يتمنى أن يزحف إليها البنيان الجميل عاجلاً غير آجل ليرفع من وتيرة الجمال الأخاذ الذي يغري من يزور المكان بالأوبة ثانية وثالثة. لما يراه من تغيير في البنيان بين زيارة وأخرى.

الجبل كأهل المكان يتطلع إلى المزيد والمزيد من الزائرين المحبين على الرغم مما ينتابه من الحسرة والألم وهو يرى تغوُّل من آواهم ينهشون بطنه ويحدثون التغيير في ملامحه

بوتيرة أسرع من إشادهم للبنيان ، كأنهم يخرقون عهودهم معه ، فهو ارتضاهم جيرة مقابل الأخذ والعطاء ، لكنهم يفسدون المكان بكل طاقة أوتوها ، فأذاهم لم يقتصر على بطنه بل امتد إلى مظاهر البيئة الأخرى وأسهم في تغيير شكلها الطبيعي إلى درجة كبيرة كاد يفقدها الأصالة ، فكل جمال وأنس جاء بهما جيرانه لا يمكن أن يعادلا ما أفسدوه في الطبيعة. فسر جمالها كامن في بقاء أصالتها ، هذا يذكرنا بالآية الكريمة : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ، وبالقول المشهور : (اتقِّ شرَّ من أحسنت إليه). يتنهّد جبلنا الأشم بعمق ، ويلوم نفسه على ما مضى فقد سبق السيف العذل.

لو تصرف بقسوة وتحدٍّ منذ البداية كما فعل مع أمّ الكواكب لما وصل إلى ما هو عليه ، فالحكمة تقتضي الحزم والعزم وألا يؤجل العمل بين تسويف وتردُّد باختلاق الأعذار حتى يقع الفأس بالرأس ، لكن خاطرًا آخر أتى الجبل هامسًا مواسيًا : ألا ترى في مقابل ما فقدت مقدار الجمال الذي أصبحتَ تتمتع به ؟ لاحظ وارنُ لهذا التآلف

والتناسق الخلّاب بين الحجارة المختلف لونها لتكشف لك أن الأشياء قد تتقاطع مع بعضها كما تتقاطع مصالح الناس وإن تنافرت.

إن تخاصم هذا المزج بين المتناقضين أفرز لنا مشهدًا غريبًا عجيبًا رغّب في مزيد منه ولا سيما اللون الرمادي الذي يزيِّن المنظر أفقيًا وعموديًا بعد أن أخذ لونه يتغير بلفحات الشمس الحارقة صيفًا ، فالمنطقة وإن كان جوها باردًا ففي بضعة أسابيع يلفُّها جو حار شمسه مؤثّرة تصبغ ما تصل إليه بلون مائل للسواد ، فسطوتها اللافحة امتدت إلى هذا العاشق المتسلل عبر الحجارة العصية على أنواء الطبيعة، لكنها سمحت للعاشق أن يركن إليها ويتعايش معها مقابل أن تسلبه ماءه ليصبح جامدًا مثلها وستعوضه عنه لونًا رماديًا يزيل بعضًا من حدة التناقض بين أجزائها.

هذا التداخل في حجارة الجدران المتنافسة مع جبل عتي قائم منذ الأزل متطاول نحو السماء يُبزُّ كل منافس له مما حوله ، يعطيك صورة رائعة بديعة مولّدة من تناقض جديد

نتج من عصارة قلب الجبل التي أخذت على عجل خوفًا من ملاحقة رجال الأمن المكلفين المحافظةَ على البيئة ومنعهم كلّ من تسول له نفسه أن يعبث في مظاهر الطبيعة، فالجبل من أبرزها، لكن الواقع مخالف، وعصارة الجبل تُسلب بأحجام مختلفة ثم تقص وتهذَّب لتكون متقاربة الحجم ثم تؤوب متلهفة إلى مهدها الأول الذي خلقت فيه واحتضنها منذ مئات السنين، لكن شكلها الجديد تغيَّر فبدت غريبة للوهلة الأولى ومع ذلك ليست مرفوضة، فأصلها تقبّلها بعد معالجة حاذقة أجراها البناؤون عليها بما جعلها أهلاً للعودة إلى مهدها الأول صدر الجبل الحنون الذي ضمّها بحنان مشفوع بشوق لا نظير له على الرغم من قساوة ناهبيها، ومزاحمة الأحجار الوافدة التي جاءت من بعيد، فكأنه يقول: (يا جبل ما يهزك ريح)، (كرمال عين تكرم مرج عيون)، فيضغط على نفسه كاتمًا أنفاسه موسعًا لهما مكانًا في صدره. هذه طبيعته وسجيته فهو شيخ المكان وقيّمه.

كم من لاجئ أوى إليه! وكم من خائف احتمى بحياضه، وكم من عاشق ومعشوق وغيرهم كثير توارى في جنباته عن الأعين. كم من حزين أو مهموم أو مغموم جاءه ليبثّه ما في نفسه من لواعج يكتمها في صدره ، هؤلاء جميعًا أسرّوا له فغدا مكمن أسرارهم وهمومهم... يكتنِز الكثير من التناقضات إلى درجة التنافر ، ومع ذلك كله أضاف إليها تناقضًا بديعًا آخر في جانبه الجمالي. هذا الكنْز المتناقض قد يكون لعب دورًا ما في تشكيل الكتلة المتماسكة التي تضحّي من أجل الآخرين ، فالجبل بشكل عام ضحّى كثيرًا ، فأضفى الله القادر على كتلته المتناقضة أصلاً مسحة جمال متناسقة نمت بنمو الجانب السلبي الذي يبدو ظاهرًا أنه اعتداء على صاحب المكان الذي أعيد إليه مسلوبه بالمفهوم السطحي مرة أخرى، لكنه في الحقيقة عاد إليه أجمل وأروع.

بربك أليس هذا غريبًا ؟ نهب وسلب واعتداء من مفسدي الطبيعة وسكون من دون أي ردة فعل بالمقابل ينتج

عنه جمال بديع متآلف بين حفر عشوائية تعاد لها حجارتها مصحوبة بأحجار غريبة يحسن سبكها فتعكس شكلاً جديدًا يكاد ينطق من أخمصه حتى رأسه، جمال في جمال، كأن الشاعر في تصويره التالي يعنيه هو لا غيره:

كأنّ الكأس في يدها وفيها
عقيق في عقيق في عقيق

فاليد الساحرة التي قصت الصخور وقسّمتها إلى قطع متناسقة محدودة العرض والطول تآلفت معها يد أخرى أكثر مهارة عندما تلقفتها وصفّفتها لتشكل لوحة فنية رائعة كادت تتحدث عن نفسها، كما جسّدها الشاعر إذ جمعت كل عناصر الجمال، وبخاصة البيوت المشيدة هناك، والتي تطلّ على النهر المنساب بين يديها فهي تفسح للرائي أن يمتّع مقلتيه بمشهد عجيب يذكّره بالآية الكريمة ليقول: (.. فتبارك الله أحسن الخالقين).

ماء مترقرق عبر مجرى متلهف الوصول إلى مأواه الأخير ليرتاح ثم ليسهم في إنضاج صورة أكثر روعة تعكسها عطاءات الغوطة الغنّاء التي ترتوي به ، وتغريه ببهائها الفريد، ليس هو وحده بل كل من جاءها مستجمًا ، فبمجرد أن يحدِّث غيره عن روعتها وجمالها ترى السامع يشدّ رحاله إليها ، مسرعًا متشوقًا لرؤية هذا الجمال البديع ، ومن أتقن صرف القول أجاز لمن حدّثه أن يزيد. فكيف إذا كان المتحدث شاعرًا له ما له من حسٍّ مرهف يساعده على التغنّي بجمال الغوطة الغنّاء ، فتلهمه كما ألهمت غيره فيحاول محاكاتهم شعرًا أو رسمًا ليغدو عمله على الألسن ، كاشفًا السر الذي جعل الجبل الأشم يسمح بنهب قلبه وتحويله إلى مادة بناء تشيّد بها بيوت تؤوي الكثير ، فالجبل لما تيقّن من حبهم وعشقهم للجمال ، وقدرتهم على تجسيده حقيقة ملموسة يشاهدها كل عابر على سفحه غضّ الطرف عنهم ، وضحّى بأغلى ما يملك ، بل لم يبخل في يوم من الأيام على هؤلاء الذين قصدوه طالبين عونه بكل ما أرادوه

فكان لهم نعم العون. لو كانت رغبته غير ذلك لما سمح لثغره أن يبقى مبتسمًا كل هذا الوقت رغم تكالبهم على نهب عصارته بكل ما آتاهم الله من قوة. بل آثر أن يكتم غيظه ويكبت غضبه، ويخرس زمجرته، فلم يعبس ويقطّب ويبسر ويهز عطفيه حتى لا يطيح بكل ما عليه من بشر وشجر وبناء فيصبح ما عليه أثرًا بعد عين.

بيئة جميلة تعلَّق بها أهلها، وهي بدورها احتضنتهم ليل نهار صغارًا وكبارًا، فالكبار يعملون طيلة النهار في حقولهم، ويسمُرون ليلاً حتى وقت متأخر مع حكايات أبي حامد وغيره، أما الصغار فيلعبون بأزقّة القرية من دون ملل أو كلل ألعابًا بدائية عمادها القوة العضلية والتي قد تستجر عليهم التخاصم البريء الذي يصل إلى حد التشابك بالأيدي، لكن سرعان ما يتبدل مشهد تخاصمهم كسحابة صيف عابرة، إذ تعود الألفة إلى القلوب، فيعيدون ترتيب مجموعاتهم من جديد حتى تراهم يتقاسمون ما في أيديهم من طعام.

بين هؤلاء الأطفال كان ولدا شيخ القرية فيصل وعبدالله يلعبان معظم الوقت، فهما يشاركان لداهما اللعب كلما سمح لهما أبوهما ، فيخرجان إلى ساحة القرية التي يتجمع فيها الأولاد من أزقة مختلفة، وقد يذهبان إلى النهر ويلعبان بالماء أيام الحر الشديد، ولا يعودان إلا متأخرين، فينال فيصل الولد الأكبر تأنيب أبيه لأنه التحق منذ فترة بالكُتّاب ليتعلم تلاوة القرآن ، وحفظ جزء منه ، وتعلّم مبادئ الحساب والقراءة والكتابة حتى يساعده في فك الرموز التي تأتيه من المنطقة، والرد عليها، لكن الولد فشل في تحقيق طموح أبيه، ولم يتابع علوم الحلقة في الكُتّاب حتى النهاية.

كم مرة حاول الشيخ إقناع ولده فيصل بالعودة إلى الكُتَّاب. كان فيصل صبيحة كل يوم يعمل لأمه زفَّة بكاء ونحيب قد تصل إلى مسمع الجيران لدى إيقاظه ليذهب إلى الكتّاب. هذا الإصرار على عدم الذهاب، إضافة إلى كم التحصيل الزهيد الذي كونه خلال تردده على الكتّاب

دفعا الشيخ لإعفائه من الكُتّاب، فأوكل إليه أن يرعى أبقار الأسرة في حقول القرية عقابًا على كبر رأسه. والتفت إلى ولده الآخر آملاً أن يعوضه ما لم يحققه فيصل فأعطاه جل اهتمامه عندما قارب سنًا تؤهله دخول الكتّاب، لكن أكثر ما يخشاه الشيخ أن يتكرر لولده الثاني ما حصل لأخيه من تعثّر ونفور، فشرع يفكر بالحاجات التي يرغّب فيها الولد، ويتمناها. فتذكر أن ابنه عبدالله طلب منه ذات يوم مسدسًا ليلعب مع أقرانه، وفي أول زيارة قام بها الشيخ إلى دمشق بعد فشل فيصل اشترى مسدسًا بلاستيكيًا وخراطيش ليكون مفاجأة لعبدالله يقدمه له قبل افتتاح حلقة الكتّاب الجديدة ليدخل الفرح إلى قلبه. ناداه ولما جاءه قال: أتدري يا عبدالله لمن هذا الكيس؟ نظر عبدالله إلى الكيس، وقال: لا. قال أبو فيصل: لو كان الكيس لك أتفرح؟ تريث لحظة وقال: سأفرح إذا كان فيه حاجة تخصني. استشف الشيخ من إجابة عبدالله ملمح ذكاء. فقال:

- عبدالله ، بظني أنك تحب المضافة وروادها ، وتحب مساعدتي، أليس كذلك؟

- بلى أبي أنا أحب مساعدتك.

- أتدري كيف تكون مساعدتك أحسن؟

- كيف يا أبي؟

- حبيبي ، مساعدتك تكون أحسن عندما تقرأ الكتب الواردة من المنطقة، وترد عليها.

- أبي أنا لا أعرف القراءة والكتابة فكيف لي أن أقرأها وأرد عليها؟

- حسنًا أنا أقول عندما تتعلم القراءة والكتابة بإذن الله.

نظر عبدالله إلى وجه أبيه مستغربًا وقال:

- كيف أتعلم القراءة والكتابة يا سيدي الشيخ؟

- بني ، قبل كل شيء اطمئنّ ، ما في الكيس لك ، أمّا كيف لك أن تتعلم فعلى حد علمي أن شيخ المسجد صديقك ، وبعد أيام سيفتتح صديقك هذا حلقة جديدة لمن في سنّك بالمسجد لتعلّم القرآن وحفظه ، ومبادئ القراءة والحساب والكتابة ، فما رأيك أن تكون فارسها ؟

تبسم عبدالله من قول أبيه بأن الشيخ صديق له ، وكأنه يعترف برأيه أنه صديق رواد المضافة حقًا ، ومنهم إمام المسجد ، وقال :

- قلت بأن الكيس لي ، أتسمح لي أن أفتحه الآن لأعرف ما فيه؟

فقال الأب :

- تكرم عينك ، تفضّل.

أخذ عبدالله الكيس وأخرج العلبة من داخله. حملق بالغلاف كأنه لا يصدق ما يرى عليه ، ثم استأذن والده بفتحه ، فكانت المفاجأة كبيرة ، فاندفع إلى والده وخطف

يده يقبّلها مرة بعد مرة. من شدة فرحه خرج ليخبر أمه مناديًا : أمي أمي انظري ما جاء به أبي؟ خرجت من المطبخ تمسح يديها :

– ما لك يا عبدالله تصرخ؟

– لا ، لا يا أمي انظري العلبة عليها مسدس ، فأنا أحبه فقد رأيت الأولاد يلعبون به.

– حبيبي افتح الغلاف أولاً ، وأخرج ما فيه. فتح عبدالله الغلاف مرتبكًا لا يكاد يصدق ما يرى ، فأخذ المسدس اللعبة وتلمّسه غير مرة ، وركض إليها ليقبّل يدها ، لكنها سحبتها.

شرع يطوف في فناء الدار وهو يشهر المسدس اللعبة كأنه في منازلة مع خصم ، فسرح خياله مستذكرًا مشهد الأطفال الأكبر منه سنًا في العيد الماضي ، وهم يلعبون ويرمي بعضهم بعضًا كما يفعل الجنود أثناء المناورات في رمي تماثيل يضعونها بعد مسافة للرمي عليها حتى يتقنوا

الرمي. فمشهد الجنود ليس بعيدًا عنه، لأن الحقل الذي يتدرب فيه الجنود على الرمي يقع في قريتهم. فكم مرة أرسل أبوه الحاجب إلى إمام المسجد ليبلغه بموعد المناورة التي سيجريها الجيش في الحقل القريب طالبًا منه أن يبلغ المصلين بعدم توجههم هم أو الرعاة إلى الحقل. كما تذكر أيضًا أمنيته وقتذاك وهي امتلاكه مسدسًا ليجاريهم في معاركهم الافتراضية، وما سيفعله في التخفي لمفاجأة خصمه وتهديده حتى يستسلم رافعًا يديه.

كان يزدرد ريقه عندما يتراكض الصبية ويتصايحون ويسددون نحو الخصم، فيقول في نفسه: لو كان بيدي مسدس لأظهرت للعيان دقة في التصويب، وبراعة في المناورة والتخفي حتى أفاجئ الخصم بزخات من الخرطوش كثيفة تحجب عليه الرؤية فيستسلم، وإن رفض فستدور بيننا معركة حامية الوطيس، أتولى خلالها قيادة مجموعتي. سأخطط وأخطط للتصدي بدقة متناهية، وسأقود المعركة بحنكة قتالية تحتم على الخصم التقهقر والانسحاب على

الأقل ، مهما أجاد المراوغة متهربًا من مصيره المحتوم. وقتذاك أنال بجدارة لقب قائد الرماة في القرية. لنحظى أنا وفريقي بإعجاب الجمهور من المشجعين الذين يصفقون لنا بحرارة تغري بعضًا من مشجعي الفريق الخصم إلى تشجيعنا. ألم يقل المثل :(الحق ما شهدت به الأعداء) ؟ من ينظر إلى وجوه جمهورنا يلحظ علامات الفرح ترتسم عليها بينما الوجوم والتقطيب يعلوان وجوه مشجعي الخصم الذين تتعالى أصواتهم لشحذ همم فريقهم ليخرج بأقل الخسائر ، لكن مشجعينا يبزونهم صوتًا ويطالبوننا بالحسم لإنهاء اللعب بالضربة القاضية. فنلقى من الفريق الخصم مقاومة شرسة ومحاولات متكررة إلى تعديل كفته آملاً بالتعادل على الأقل، ومن أين له ذلك؟ فيحاول المناورة والتلاعب ليمتد اللعب إلى وقت متأخر من النهار ، فتنهك الأجسام من الركض والتخفي والمداهمة وما شابهه. ولكي نحافظ على إنجازنا بالفوز يتفتق ذهني عن تخطيط غير مسبوق بالتصدي للخصم ولإفشال خططه حتى يتهاوى ويفقد كل أمل في

إحراز أي إنجاز فيستسلم ويرفع الراية البيضاء، فيعلن فوزنا رسميًا، ثم يصطف الفريقان أمام الجمهور ويتعانق الرماة، ونتقبل التهاني من الجمهور بالفوز. بعدها نغادر المكان إلى بيوتنا والفرحة الغامرة تغشانا بعد أن استنفدنا كل طاقاتنا لنستسلم إلى نوم هانئ في بيئة صحية، فننام في غرفنا المشرعة النوافذ والتي يأتيها هواؤها العليل من قمة الجبل الأشم كأنه يزف لنا تبريكاته بالفوز، ولم لا يكون هذا؟ فبيوتنا تعتبر آية من آيات الجمال الذي خلفه الأجداد بأن جعلوها ترتع على صدر مضيفها من دون أن يقلل تطفلها واعتداؤها عليه من روعة منظرها الآسر الذي يحكي لمن يحادثه رحلة عطاء ممتدة عبر الزمن، فأطفال اليوم هم أحفاد رجال الأمس رضعوا منهم لبان الرجولة المتجلي بإصرارهم على الفوز أو الصمود حتى الرمق الأخير قبل التسليم بالخسارة.

هذه المشاهد حملها تملكه للمسدس، لكنه تذكر أباه الذي تركه في المضافة فأخذ يضحك من نفسه وعاد إلى أبيه

الذي سأله أين ذهبت يا عبدالله ؟ أجاب ببراءة الأطفال كنت أتذكر يا أبي مشهدًا رأيته في العيد الماضي. وشرع يقص ببراءة مجرياته ، ما أثار فضول الشيخ فضحك ثم عقّب: أنت يا عبدالله ، ستكون فارسًا شجاعًا وراميًا ماهرًا بعون الله. فالعيد ليس ببعيد حتى تثبت رجولتك يا بطل ، ولك عندي هدية أخرى.

اقتطع عبدالله عهدًا من أبيه بالحصول على هدية ، فما هي يا ترى ؟ هذا شغل باله أكثر من الفوز والتخطيط للمعركة الفعلية في العيد القادم فرجع لنفسه وقال : أين أنا من العيد ؟ إنه بعيد ، لابد من التفكير بطريقة تجعل أبي يقدمها لي قبل العيد ، ما الذي يحبه مني ؟ ماذا يا عبدالله ؟ ماذا ؟ وشرع يفكر ويفكر ، فتذكر رغبة أبيه في التحاقه بالكتّاب وتعلّمه مبادئ القراءة والحساب وحفظ آيات من القرآن... تردد بعض الشيء ؛ لأن الذهاب إلى الكتّاب والمذاكرة حياة أخرى... ما العمل وافتتاح دورة الكتّاب مازال أمامها وقت ؟ فأنا أريد الحصول على الهدية قريبًا

حتى يراها أبناء الجيران. بقي يبحث ويعايش أحلامه حتى جاء وقت النوم، فاستسلم له.

# الفصل الرابع

لم يبخل الكُتَّاب على مرتاديه ، فأعطى عبدالله ومن رافقه من الصبية عصارة معرفته ليقدروا على مواجهة الحياة بسلاح المعرفة، وإن كانت محدودة، فهي حلم أهلهم الذين يعيشون في قرية وادعة تكبر يوما بعد يوم حتى ضاق السفح عن بيوتها ، فيد العمران لم تكلّ لحظة ولن تمل من تشييد المنازل عليه لتستوعب وافدي القرية الجدد المفتونين بجمالها وسمعة رجالها من مثل مختارها وعينها البصيرة إمام مسجدها الذي أسهم بدور كبير في بناء شخصيات أطفالها رجالها مستقبلاً.

في تلك المرحلة من الزمن حدث أمر عظيم ترك أثره في نفس مختار القرية، وجعله مصممًا على تعليم عبدالله أكثر من أي وقت مضى ليخلصه من تكرار كابوس نسج خيوطَه

بريدٌ وصل المختار من المنطقة في يوم شتوي بارد ، ولكي يعرف الشيخ فحواه كلف حاجبه البحث عمن يقرأ له البريد. انطلق الحاجب يبحث عن قارئ في القرية ، وهم وقتئذٍ لا يبلغون أصابع اليد الواحدة ، فلم يعثر على أحد لأنهم غادروا القرية إما للعمل ، وإما لشراء بعض الحاجيات من المدن اللبنانية القريبة التي تربطهم بأهلها أواصر قربى بحكم المصاهرة والنسب. فذهابهم إلى لبنان أسهل إليهم من ذهابهم إلى دمشق ، فبمجرد أن يتجاوزوا الجبل الذي يحضن قريتهم ويسيروا عبر الفجاج إلى الجانب الآخر يصبحون في الأراضي اللبنانية ، فيحلون ضيوفًا على أقاربهم ، ومن بعدها ينطلقون إلى الداخل بحثًا عن عمل أو لشراء ما يحتاجون إليه، لذلك فشل الحاجب في العثور على أحدهم. فسُقِطَ في يد المختار بعد أن مرَّ على وصول البريد يومان من دون أن يعرف أصحابه ليرسله لهم.

فكّر مليًا في حلّ يجنّبه مسؤولية تأخير البريد وقلّب الأمر على كل وجه ، فقال أنتظر يومين آخرين عسى أحدهم

يعود. مرَّ اليومان ولم يعد أحد من القرّاء بل وصله بريد آخر من مصدر ثان فزاد قلقه ، فكيف يخرج من هذا المأزق؟ ارتأى أن يذهب بنفسه إلى أقرب القرى منهم ومعه البريد ليقرأه أحدٌ له ، لكن البرد القارس جعله يتردد لكبر سنه ، فهو يعاني بعض الأمراض المزمنة التي يخشى تفاقمها عليه إن ذهب. فكَّر مليًا فلم يجد أفضل من إرسال حاجبه إلى قرية (بتيما) ليأتي له بقارئ.

كلّم الحاجب بهذا الشأن مقابل مبلغ مالي ، وبإعطائه فرسه. وافق الحاجب ، وفي ضحى اليوم التالي امتطى الحاجب فرس المختار وانطلق متجهًا إلى (بتيما) ، آملاً أن يعود عصرًا بالقارئ.

لم يمض على خروجه أكثر من نصف ساعة حتى بدأت خيرات السماء تنهمر بغزارة قلما حصلت من قبل ، والأغرب من ذلك أنها استمرت بلا انقطاع وبغزارة ، جعلت الشيخ قلقًا على الحاجب في هذا الجو الخطر. كم تمنى لو ذهب بنفسه ليجنبها تبعات تعرض الحاجب

للمخاطر، فالرجل يعيل أطفالاً صغارًا... هذا الحدث جعل الشيخ يحادث نفسه بنفسه: تصوّري إن حصل لهذا المسكين لا قدّر الله، مكروه، فمن سيتحمل المسؤولية ؟ ماذا ستفعلين... ماذا ستفعلين؟

تنهّد بعمق وشرع يضرع لله أن يجنّب الرجل كل سوء، ويعيده بسلام، وأن يخفف من وطأة الأنواء التي تجتاح المنطقة رأفة بالإنسان والحيوان، ثم ينظر إلى زخات المطر التي يضرب بعضها بعضًا فتتناثر يمينًا وشمالاً فيتخيلها الشيخ كأنها ترشق كبده، فيعتصر ألمًا وكمدًا ليسرح من جديد بعيدًا بعيدًا متسائلاً: ماذا سأفعل تجاه هذا الموقف المأساوي؟ حدّق من مكانه إلى كبد السماء فرآها ما زالت ملبدة بالغيوم الداكنة، فانتابه حزن وقلق شديدان فضلاً على ما فيه، متصورًا أن لا أمل قريبًا في انقشاع تلك الغمة، لكن إيمانه الراسخ بالله أوحى إليه بأن الكرب مهما طال سينتهي.

ترك الشيخ فناء الدار ودخل إلى المضافة، ثم جلس قريبًا من المدفأة، وأنّى له الجلوس؟ أخذت الهواجس تنتابه من جديد، فحاول أن يسلّي نفسه بفنجان قهوة من الدلة التي انتصبت على ظهر المدفأة حزينة متألمة مهملة من غير ذنب، تحدِّث نفسها: سيدي الشيخ، ما لي أرى مزاجك معكرًا؟ أقسم بالله إنني رهن إشارتك وأقوم بخدمتك وأجود بعصارتي على ضيوفك منذ نصّبتني سيدة على المدفأة أو (بابور الكيروسين) لم أعصِ لك أمرًا ولم أبخل أبدًا على أحد يمدّ يده إلي. فلم هذا الجفاء من يدك طيبة الرائحة؟ مضى وقت طويل ولم تباركني يدك أتمنى أن أعرف السبب علّي أساعد.

هذا الخاطر وافاها والشيخ يقترب منها مترددًا أياخذها ويسكب قليلاً من عصارتها في فنجانه أم لا؟ اقترب منها، مدّ يده إليها، استبشرت خيرًا، أخذت نفسًا عميقًا، ما أطيب رائحة يدك سيدي الشيخ، مسْكٌ والله، أخذ بالأخرى الفنجان، كادت تطير من الفرح، لو أمكنها

لسارت إليه بنفسها ، أمسكها فذابت عشقًا في رائحة يده حتى كادت تغيب هيامًا في شذاها ، أخذت شهقيًا أعمق ، متمنية أن تطول قبلات يده لها ، سكب فراحت تعطي من عصارتها بغزارة ، استغرب هذا الكم الذي أصبح في الفنجان لم يره من قبل، ماذا حصل؟ أيعيد جزءًا منه إليها؟ هذا ما كانت تهابه، فجاءها الفرج وهو يقرب الفنجان إلى فمه ليرشفه دفعة واحدة كالعادة ، لكنه فشل ، فمقدار القهوة كبير يصعب أخذه دفعة واحدة، أبعده قليلاً وتذوق بلسانه طعم السائل فوجده مُرًّا ؛ بل أمّر من العلقم، تجرّعه بمرارة امتزجت بطعم القهوة المرّ الذي لم يرغب في مغادرة مؤانسة لسانه، فحاول الشيخ إزالته بمسح لسانه في سقف فمه الأعلى مرّة بعد مرّة وأعرض عن باقي العصارة حتى يمحو الطعم المر الممجوج.

لم يكن الشيخ يدري أنّ فرج الله بات قريبًا ، فأصوات المطر المرتطم بالأرض بدأت تخف، ظنّ نفسه يتوهم، فأحب التأكد ، فهرع إلى باب المضافة ثانية ، ونظر أرضًا إلى

الذرات التي تتطاير ، فوجدها أخف حدّة فتنهّد الصعداء ، وبدأ يتأملها مسمرًا عينيه بها وهي تضعف رويدًا رويدًا حتى كادت تتوقف ، تعجّب وقال بصوت مسموع : سبحان الله العظيم ما أكرمك يا الله! وما أعظم قدرتك! ألست القائل : (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون) بلى.

بدت له الغيوم تتراكض في كبد السماء متقاطرة لتفسح المجال أمام بقع الصفاء التي تلاحقها كأنها تمحوها من السماء. كان الشيخ يراقب كل ذلك ، متمنيًا أن تتسارع حركة الصفاء لتطرد شتات الغيوم المتبقي بعيدًا بعيدًا حتى يستبدل بقلقه اطمئنانًا وبخوفه أمانًا.

هذا المشهد الطبيعي المتبدل منحه نتفة استبشار بأن الأمور ستمضي وفق هواه ، وسيعود الحاجب مصحوبًا بمن سيقرأ له البريد ، ليسقط عن كاهله كل هم وغم.

فرحة الشيخ – واحسرتاه – لم تستمر ، فلم تكد تطل الفرحة برأسها حتى تراجعت أمام قادم جديد لم يكن متوقعًا البتة ، إنه ضباب كثيف لفّ جو الأرض واندفعت معه ريح

قوية تشدّ من أزره عاقدة معه تآلفًا ليزيحا من الجو كل بقية أمل تعلّق بها الشيخ وبخاصة مع اقتراب النهار من نهايته ، والذي بدوره سيخفف من رؤية الماشي في الطرقات ، وسيكون إرهاصًا لليل بهيم قادم. هذا الوافد الجديد المتشعب بآثاره كبس بثقله كمارد عملاق على صدر الشيخ الذي بالكاد يحمل نفسه ويقوى على الحركة ، فكيف له أن يتحمّل كل هذه الهموم؟!

مقدمات تتوالى ستغيّر الأنواء لا محالة ، فما كادت الغيوم تنقشع لتسمح لأم الدنيا أن تبتسم وتزيّن آخر النهار بأشعتها الذهبية حتى تجهمت السماء فجأة كأنها لم تكتف بما حمله نهارها منذ ضحاه من غموم للشيخ الذي ضاقت الدنيا برحابتها أمام عينيه ، بعدما طاحت بارقة الأمل في عودة موفده هذا اليوم. فكلما نظر إلى السماء التي غدت شاغله الأول متأملاً سحب الغيوم الوافدة ، وهي تتجمع وتتلبد ويتغير لونها إلى سواد حالك ؛ يزداد رعبه ، وتتهافت على ذهنه الكوابيس التي صوَّرت له أن الأنواء بدورها تآلفت

مع ما يكره، وتآزرت في سبيل قهره وبثّ الفزع في نفسه، فغدا كمن لدغته أفعى لا يستقر على حال، فماذا يفعل؟ الوقت تجاوز العصر وغضب السماء في ازدياد، ما يعني أن الحاجب إن وصل قرية (بتيما) فلن يتمكن من العودة في هذا الجو الممطر البارد فضلاً عن مخاطر الليل البهيم الموحش ومفاجآته الكثيرة في بيئة كثرت بها الضواري من ضباع جائعة وذئاب هائمة وغيرها.

عاش الشيخ تلك الساعات في عالم غير العالم الذي ألفه من قبل، ودنيا مختلفة تمامًا عن دنياه الطبيعية التي عايشها فيما سلف، فهو حاليًا يتجرع مرارة لحظات مكروبة أفقدته توازنه ورصانته وشلّت تفكيره. أيخاطر بنفسه ويلحق بالرجل، أم ينتظر لعل الله يجعل من هذا الضيق مخرجًا؟

رصيد دقائق ما تبقي من نهار الشيخ ينفد بسرعة، ما يعني له تعذُّر اللحاق بالحاجب والتخلّص من تأنيب الضمير ونظرات أهل الحاجب وظنونهم حول فعلة شيخ القرية

بولدهم ، فهو المسؤول الأوحد في نظرهم عن هذا الخطر الذي قد يتعرض له ابنهم.

ما بقي من جذوة إيمان تعمر قلب الرجل كانت تحثه على ألا يفقد الأمل بأن الله قادر على أن يغيّر الأنواء ، ويعيد الحاجب إلى أهله ، وإلا فسيذهب هو نفسه وراءه ، حتى يطمئن ، مهما ساءت الأنواء ليريح ضميره ، ويبعد عنه المسؤولية.

كان الشيخ يشعر بأن الوقت يمضي سريعًا ، فها هو ما بقي من النهار يذوب لتتصدر الكون ليلة ليلاء ليست كبقية الليالي ، هاجمت القرية بقوة ومحت كل أثر للنهار ، وأرخت عتمتها على كل مخلوق فكأنها تنسق مع الأنواء القاسية ، فالقرية في وضعها الطبيعي ترتع في بقعة تحيطها الجبال من كل جانب ، وبسهولة تباشرها مقدمات الليل لتدفع شتات ما بقي من نهار لكي يتجرع المختار بهذا القادم الجديد مزيدًا من الآلام والتيه ، ما جعله ينسى صلاة المغرب لولا دخول عبدالله عليه قائلاً : أبي هل صليت المغرب ؟

فمن عادته أن يصطحب ابنه إلى المسجد ما أثمر عن علاقة قوية بين عبدالله وإمام المسجد، إضافة إلى ملازمة المضافة التي يرتادها الإمام كثيرًا.

إن ثقل هذا اليوم وما في طياته من هموم وغموم كادت تنسي الشيخ صلاة المغرب لولا تذكير عبدالله له.

بدأ الليل أولى خطواته بتأثير نفسي قاس على الشيخ، فكلما خطا خطوة في عمقه أطاح بما بقي من أمل لدى الشيخ بعودة مصدر أمله. كان ينتظر بفارغ الصبر أن يأتيه رائد من رواد المضافة. انتظر ثم انتظر حتى ملّ الانتظار وقال يائسًا: هل امتدت يد الجفاء إلى رواد المضافة؟ هل تآلفوا مع منغصات يومي؟ ماذا حصل؟ لم يسبق أن جفّت مضافتك أبا فيصل من الرواد؟ سبحان الله عند حاجتي للأنيس لم أجده! هذا اليوم غريب، منذ فجره أتجرع المعاناة بعد الأخرى، فلم أستيقظ على موعد صلاة الفجر، وعاد فيصل من المرعى بعد لحظات من مغادرته المنْزل ليحملني مؤونة علف البقرات، وأرسلت الحاجب ليأتي بقارئ

فانقلبت الأنواء كليا. فلو عاد أدراجه منذ انقلابها لخلصني من الهم والغم، حتى البريد لم يسبق أن تكدّس لدي، مناكفة اليوم لي أصبحت ممتدة إلى رواد المضافة فلم يأت أحد من روادها ، فها هي الهواجس المخيفة تحاصرني من كل جانب ويعززها دخول الليل في وقت جفا القمر فيه الأرض فلم يظهر لحظة واحدة.

أنَّى للمرء أن يسير في هذا الليل البهيم المخيف في أزقّة قرية مملوءة بمياه الأمطار ، ناهيك عن حفرها ؟ فالمرء يخشى السير في النهار ويتحسب قبل أن يخطو أن يضع رجله في مكان غير صحيح فتنْزلق فيحصل له ما لا تحمد عقباه ؛ لهذا آثر الرواد لزوم بيوتهم قريبين من مدافئهم.

هذا الواقع آلم الشيخ فلا أحد منهم ليقص عليه ما حصل عله يخفف ، أو يشير إلى أمر قد يخرجه من دوامة كادت تقتله. كم تمنى أن يعود الحاجب ولو بخُفَّي حُنين.

كم انتظر أن يقرع بابه قارع... يا لَلهول! إن زمن الثانية أطول من الدقيقة ، والدقيقة كالساعة ، ما أقسى أن

يعاني المرء بطء الزمن وهو مثقل بالهموم ؛ كمن في نفق مظلم لا نهاية له.

فكّر الشيخ مليًا ثم ارتأى أن يضع حدًا لعزلته ، فوضع السلّم الخشبي على الجدار وصعد قاصدًا السطح ، ومن هناك نادى جاره أبا علي... لم يجب أبوعلي للوهلة الأولى، فكرر المناداة بصوت أعلى: بو علي بو علي.

انتظر لحظة، فسمع صوتًا يأتيه من بعيد:

- نعم بو فيصل خير.. اللهم اجعله خير يا شيخ خير ، يا شيخ...

- بو علي تعال على المضافة ضروري ربي يخليك.

- لحظة من فضلك، شغلت بالي يا رجل.

- لا تخف بو علي ما في شي.

- الحمد لله، جايلك.

نزل الشيخ إلى ساحة الدار ، ونظر للأعلى فوجد السحاب يلف بعضه بعضًا مطبقًا بسواده على الأرض ومن

فيها ، فإذا مد المرء يده لما رآها ، فتذكر قوله تعالى : (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور).

تابع سيره نحو المضافة، فسمع أم فيصل تقول :

- ما لك يا رجل على غير عادتك... خير إن شاء الله؟

- لا تشغلي بالك ، خير إن شاء الله ، بعد قليل جارنا أبوعلي آتٍ ، والحاجب غير موجود ، فأرجو أن ترسلي لي صحن نُقْل مع إبريق الشاي.

- توكل على الله.

دخل إلى المضافة ثم جلس قرب المدفأة وأخذ الملقط ليحرك الأخشاب بداخلها كي يزيد توهج نارها ، ثم ابتعد قليلاً للخلف ، واتكأ على وسادة وعيناه تنظران إلى سقف الغرفة ، فسرح بعيدًا بعيدًا مفكرًا بمآل الحاجب المسكين في هذه اللحظات ، أوصل بتيما أم تاه في الطريق ؟ ألجأ إلى

كهف في سفح الجبل اتقاء الأمطار الغزيرة أم تابع سيره؟ هز رأسه وقال: بالتأكيد ابتلت ثيابه فزادت معاناته وصعبت عليه المهمة. يا ترى ماذا حصل للفرس؟ أطاوعته أم عصته إن دخل الكهف؟

أسئلة كثيرة انهالت على ذهنه فأنهكته، وعطَّلت تفكيره عن البحث فيما يخرجه من المأزق، بل زاد همه أكثر كلما تذكر مصير الحاجب المأساوي، فتدافعت إلى ساحة تفكيره أسئلة من غير استئذان، فاستجرت عليه أحداث قصة طالما كان يرويها الكبار في سهراتهم، ويترحمون بطلها، فاستعرضها كشريط فيديو مرَّ أمام عينيه مع ما يحمله في ثناياه من ألم وحسرة جريرة النهاية المأساوية. إذ فقدت القرية شابًا من أشجع وأنبل شبانها...

فمن عادة الشاب التردد على أخواله بين الفينة والأخرى، لكنه في الزيارة الأخيرة لم يعد إلى القرية، فذات يوم ممطر شتوي خرج الشاب قاصدًا قرية خؤولته في الجانب الشرقي من الجبل لقضاء يومين، مضى اليومان وهو

في ضيافتهم، ولما أراد المغادرة رفض أخواله ؛ لأن الأنواء سيئة، آملين أن يتحسن الجو. بل حصل العكس، فالجو زاد سوءًا، وحمل معه ثلجًا كثيفًا تراكم في الطرقات والبراري، فاضطر الشاب إلى البقاء أملاً في تغير الأنواء بما يمكّنه من المغادرة، لكن الأمور كانت تسير بعكس ما يتمناه، فأحرج من طول بقائه، وخاف على أمه التي تعذر عليه طمأنتها، فاستغل في اليوم الخامس أول انقشاع للغيوم، وأصرَّ على المغادرة باتجاه قريته. حاول مضيفوه ثنيه عن عزمه، لكنه أصر فاشترطوا عليه تطمينهم مجرد وصوله.

سار الشاب مسرعًا تجاه قريته مقتنصا تحسُّن الجو، فوصل إلى منتصف الطريق تقريبًا. فإذ بريح عاتية تهب فجأة وتغيّر الأنواء، وترسل بردًا قارسًا أعقبه مطر غزير حال دون رؤيته الطريق فخشي الضياع، فلجأ إلى أقرب كهف علّه يجنّبه المخاطر حتى تتحسُّن الأنواء ليتابع طريقه.

دخل محمد الكهف، وجلس على مقربة من الباب منتظرًا هدوء العاصفة، لم تمض دقائق عليه حتى داهمه نعاس

شديد ، حاول تجاهله مرّة بعد مرّة ، لكن سلطان النوم تغلّب عليه فسرقه وغطّ في نوم عميق ، ولما كانت المنطقة المحيطة بالكهف مرتعًا للحيوانات الكاسرة من ذئاب وضباع وثعالب ، وقد حرمها هذا الجو فرصة البحث عن فرائسها فغدت تتضور جوعًا ، فأخذت تبحث فيما حولها عن أي فرصة لاقتناصها. فشاء الله أن يدهم المكان ذئاب استشعرت رائحة فريسة ، فاقتربت من باب الكهف لتجده فشرعت نهشًا فيه ، فاستيقظ فزعًا ، لكنها لم تمنحه الفرصة بل صبّت جام غضبها عليه ، وانقضّت مجتمعة بكل ما لديها من قوة فنالت منه وأنهكته لتبوء محاولاته بالفشل. مزقت ثيابه ونهشت لحمه فخارت قواه أمام شراستها ، ولم تمنحه فرصة للمقاومة ، وبقيت تنهش به حتى فقد الوعي واستسلم ليكون وجبة لهذه الضواري.

مرَّت أيام العاصفة على المنطقة ثقيلة حتى ضاق الناس بها ذرعًا ، وكادت تستنفد مؤونة حيواناتهم الموسمية. ليزحف الفرج أخيرًا ، وتميط الشمس حجابها ، فسمحت لأشعتها

التمدد لإعطائهم الإذن بإخراج حيواناتهم إلى البراري ، فكانت فأل بِشر لآل الشاب ، آملين عودته.

مضى يوم على انتهاء العاصفة والشاب لم يعد ، ومرَّ ثانٍ وثالث ، والجو يعطي الناس فرصة التقاط الأنفاس والخروج والعمل ، لكن الشاب لم يعد. بدأ الشك يراود أهله : ما الخطب ؟ لماذا تأخر ولدنا كل هذه المدة ؟ غزاهم القلق فاتفقوا على أن يرسلوا أخاه خالدًا إلى أخواله للاطمئنان عليه ، ومعرفة سر تأخره. في صبيحة اليوم التالي غادر أخوه متوجهًا إلى أقاربه ، فوصلهم ظهرًا. استقبله أقاربه مرحبين وسألوه عن أخيه ، فكان سؤالهم مربكًا له ، فبم يجيب بعدما سئل عمن جاء يسأل عنه ؟ تريث قليلاً ليعطي نفسه فرصة التفكير أكثر ، ثم قال : الأهل جميعهم بخير ويسلمون عليكم ويشكرون لكم صنيعكم ويتمنون لكم الصحة والعافية ، ويتطلعون إلى زيارتكم لهم.

كادت الغصة تخنقه ، بم سيجيب عن سؤالهم ؟ فبمقدار سهولة إجابته في نظرهم كانت صعبة لديه خوفًا من

التأويلات التي سيستجرها قوله : إن أخي لم يعد بعد... الشاب رغم صغر سنه اعتمد الحكمة ، فحاول تأخير الإجابة علّه يلتقط طرف خيط يبني عليه ، لكنهم ألحّوا عليه. فعلى الرغم من مرارة الإجابة ، أخذ نفسًا أشعرهم بأن أمرًا ما حصل، ففاجأه أحدهم بقوله :

– يا رجل شغلت بالنا. بالله عليك تكلم هل حصل لأخيك مكروه؟

– لا لا ، لكن...

– لكن ماذا ، بالله عليك تكلم لقد أسقطت قلوبنا؟

– محمد لم يعد إلى القرية.

– ماذا تقول؟. لم يعد! أين ذهب إذن كل هذه الفترة؟ أمر عجيب حقًا لقد غادرنا منذ قرابة الأسبوع. حاولنا كثيرًا ثنيه، لكنه أصر على المغادرة رغم الأنواء السيئة، كل ظننا أنه وصلكم يوم مغادرته.

– خالي.. خالي، محمد لم يعد إلى القرية منذ جاءكم يا طويل العمر، لو عرفت أمي أنه غير موجود هنا لحصل لها مالا يحمد عقباه؟ ربي سلم، سلم وفرج كربتنا.

– ولدي، خل ثقتك بالله القائل: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) فلربما يكون لدى أحد معارفه في بلدة أخرى، فأنت تعرف الشباب ومشاويرهم.

– لا، لا أظن يا خالي، فأخي محمد لا يعرف أحدًا حسب علمي، ولولا محبته لشاهر لما جاءكم في هذه الأجواء الخطرة، لكن ملله من الجلوس في البيت جاء به إليكم.

– أمر والله عجيب غريب محير! أين ذهب إذن؟ لقد توقعنا أن يعود أدراجه إلينا إن تعذر عليه المسير، ولما مرَّ اليوم الأول من دون عودته قلنا وصل بلده بحمد الله. يا للهول، أين يكون الآن؟

أسئلة كثيرة تواترت من الحضور لا إجابة عنها. بل ضاعفها انتشار الخبر في القرية التي انقلب كيانها ، فبدأ وجهاؤها يأمّون بيت أبي شاهر لاستجلاء الحقيقة.

في المساء اجتمع أخوال محمد في مضافة أبي شاهر يتداولون الأمر ، ويفكرون بفعل ما... بعد تداول كل الآراء استقر الرأي على أن يذهب أخوه وبرفقته شخصان من ذوي الخبرة بالطريق والأماكن التي يمكن أن يلجأ إليها من يتعذر عليه السير في الأجواء الماطرة الباردة ليمشطوها بقعة بقعة حتى مشارف قرية محمد ، وليبحثوا كذلك في جنبات الطريق. فإن أشرفوا على القرية من دون جلاء الحقيقة تشاوروا فيما بينهم لاختيار طريقة مناسبة تمكنهم من إبلاغ أهل محمد بالحدث.

في صباح اليوم التالي انطلق الشباب الثلاثة لتمشيط الطريق المتوقع أن يكون قد سلكه محمد في عودته. ولما صاروا خارج القرية تقاسموا مهمة تمشيط الأماكن على جانبي الطريق ، فأخذ أحدهم الطريق نفسه وما يحيط به

بعمق بسيط يمينًا وشمالاً بما يمكّنه من رؤية زميليه بكلا الطرفين ، مقابل أن يتعمق الاثنان إلى أبعد مسافة يمكن لإنسان أن يلجأ إليها في مثل وضع محمد ، على أن يكون ممشط الطريق ضابط الاتصال بينهما. توكلوا على الله وشرعوا يبحثون ، والأمل يحدوهم ألا يجدوا ما لا تحمد عقباه. محّصوا جزءًا ليس بالقليل من الطريق من دون العثور على شيء.

شعر أحدهم بالتعب فنادى رفيقيه لأخذ قسط من الراحة قرب شجرة معمرة على جانب الطريق. كانت أفنانها شبه العارية إلا من وريقات صغيرة تسمح بتسلل أشعة الشمس الباهتة بالوصول إليهم من دون إيذائهم. يقف بجانب الشجرة جدار بستان مرتفع حارسًا لما في داخله من خيرات كيلا تمتد إليها أيدي المتطفلين. كان الطقس وقتئذٍ أقرب إلى البرودة ، لكنه سمح لهم أن يمتعوا أبصارهم بمظاهر الطبيعة الجميلة التي تحتضنهم بعدما حجب عن الأرض دموع السماء وغيومها السوداء ، وسمح للرياح

الخفيفة بأن تهب بين الفينة والأخرى لتذكرهم أنهم ما زالوا في فصل شتوي تغلب على مناخه العام البرودة التي يكسر حدتها أحيانًا لجوء العابر إلى جدران البساتين أو الأشجار الباسقة المتقدمة في العمر كشجر الجوز الممتد الذي يغطي مساحة واسعة قياسًا بالأشجار الأخرى ، كما تسهم الكهوف الصغيرة والفجوات في سفح الجبل القريبة من الطريق في وقاية سالكيه من البرودة شتاء، والحر صيفًا.

جلس الشباب دقائق للراحة ، ثم هبَّوا متابعين البحث. فلم يمضِ وقت طويل على انصرافهم في تمشيط ما تبقّى حتى سمع أحمد زميله محمود رابط الاتصال ينادي : أحمد ، أحمد، أقبلْ إليّ بسرعة... تعال.

سار أحمد نحوه، ولما اقترب، أشار محمود إلى زوج حذاء ملقى أرضًا، وقال: انظر وتمعّن فيه.

نظر أحمد وأردف: أتظنها لمحمد؟

ليس بالضرورة أن تكون لمحمد ، لاحظ معي ألا تبدو قديمة؟

- كيلا نفوت الفرصة سأنادي خالدا ليراها فعساه يقطع لنا الشك باليقين.

توجه أحمد إلى الجانب الثاني من الطريق. في هذه الأثناء تابع محمود البحث فيما حوله ليعثر على الزوج الأخر ، حمله ووضعه مع الأول منتظرًا قدوم زميليه. ولما اقترب أحمد من رفيقه ناداه : خالد ، خالد ، تعال بسرعة.

أقبل خالد لاستجلاء الأمر ، وسارا حتى وصلا زميلهما الذي جمع زوجي الحذاء ، وبمجرد أن رآهما خالد صاح : هذا حذاء محمد ، والله إنه حذاء محمد ، يا إلهي ماذا حصل له ليترك حذاءه؟

أجاب محمود : اطمئن يا خالد ما حصل له إلا خير إن شاء الله.

هيمن على الشباب وجوم وحيرة شلتا تفكيرهم مما شاهدوه. فبم يفسرهذا ؟ فطرحوا تساؤلات متضاربة. من مثل : ماذا سنفعل الآن ؟ لم ترك محمد حذاءه ؟ أيكون هذا الحذاء مشابهًا لحذاء محمد ؟ أيمكن لمحمد أن يسير من دون حذاء في هذا الجو البارد الذي يلسع برد ثلجه الوجوه من دون ملامستها ؟ كيف له السير بلا حذاء ؟ أيمكن لرجليه مقاومة برودة الثلج ؟

أسئلة كثيرة تزاحمت على تفكير معطل من وقع الصدمة فغدوا شاردين صامتين ، حتى كسر صوت أحمد هذا السكون قائلاً : لم لا نبحث أكثر في الأماكن القريبة علّنا نجد ما يبدِّد ظنوننا ؟

اتفقوا مجددًا على تمحيص المكان بشكل أدق علّهم يعثرون على ما يساعدهم بتفسير سر الحذاء ، فأخذ كل واحد منطقة يبحث عما يجلّي غموض الحدث المأساوي الذي ينتظر كثيرون كشفه على أحرّ من الجمر ، ولم يبق من النهار إلا القليل، فشدوا الهمة وساروا في مناطقهم ممحصين

ليسمعوا بعد حين أكبرهم ينادي ، فاقتربا منه آملين وضع حد لهذا اللغز ، لكنه سألهم : ألم تعثرا على شيء ؟ لقد ابتعدنا عن مكان الحذاء كثيرًا ، والليل سيداهمنا بعد لحظات فالأفضل أن نتابع طريقنا إلى قرية محمد ثم نبلّغ بما حصل فالكبار بخبرتهم سيفسرون اللغز ، وقد يعرفون أماكن أخرى لم نمشطها.

تابعوا تمشيط ما تبقى من الطريق حتى طالعتهم منازل القرية وصوت المؤذن ينادي : (الله أكبر الله أكبر) معلنًا دخول وقت صلاة المغرب. توقّف الشباب هنيهة للتشاور حول طريقةٍ تمكّنهم من نقل ما شاهدوه. تبادلوا الآراء ثم اتفقوا على أن يختار خالد من أقاربه رجلاً عُرف بحكمته وحسن تصرفه ليبلغه بالحدث. هذا الحكيم سيتصرف ، على أن يقصد الآخران مسجد القرية لأداء الصلاة.

توجه خالد إلى بيت الرجل الحكيم قبل أن يذهب إلى الصلاة...

هذه المشاهد كانت تتراءى للشيخ كأنها أمامه، مؤلبة عليه كل مواجعه حتى ضاق ذرعًا بنفسه، فقام من مجلسه متثاقلاً يترنح من عظم الغم الذي يهاجمه كوحش كاسر مصمم على زرع غراس الرعب والقلق في قيعان نفسه، فهمّ يحوقل ويستعيذ من همزات الشياطين ليبعد تلك المشاهد المرعبة عن مسرح الحدث ومشاهده المرعبة، ولا سيما لدى إسقاطه لها على الحاجب فترسل رسالة مضمونها أن مصير الحاجب لن يكون مختلفًا عن مصير محمد، وبه سيفتح في القرية ملف آخر تتناقله الأجيال جيلاً بعد آخر. فأكثر ما كان يرعبه أن يعتبره أقرباء الحاجب المتسبب في مصرع ولدهم. إن تحميله المسؤولية ستترتب عليه تبعات لا تقف حدودها عند شخصه بل ستتجاوزه إلى أقربائه – لا سمح الله– إن نشب صراع بين الطرفين فسيجر على القرية الويلات والثبور ويقسّمها إلى قسمين متخاصمين به تتأزم الحياة وتشحذ النفوس بالكراهية والبغضاء ما يُفقَد معه الأمن والأمان.

في هذه اللحظات الحرجة سمع المختار طرقًا على البوابة قطع عليه هواجسه اللعينة، وأخذه إلى مكان آخر فتنفس الصعداء. ركّز اهتمامه على معرفة من في الباب فخرج ليفتح البوابة للطارق فتفاجأ بولده (عبدالله) قد وصل إليها، فتسمّر لحظة في مكانه ثم سأل:

- ما الذي أيقظك يا ولد في هذا الوقت؟

- لم أستطع النوم عندما رأيتك على غير عادتك، فكلما أغمضت عيني محاولاً النوم هرب منهما إلى أن سمعت القرع، فخرجت مسرعًا من دون تفكير.

- ولدي اذهب ونم، فأنا سأحدث عمّك أبا علي بموضوع خاص.. اطمئن، وضعي طبيعي فلا تقلق.. اذهب الآن برضا الله عليك ونم.

- حاضر، لكن بعد أن أسلّم على الطارق.

فتح الشيخ الباب الصغير فوجد أبا علي أمامه. سلّم كلاهما على الأخر. نظر أبوعلي إلى وجه الشيخ وقال:

– يا شيخ شغلت بالي، أإلى هذا الحد موضوعك مهم لا يمكن تأخيره للصباح، ففي الصباح رباح يا رجل؟

– ادخل ( بوعلي)، ما صدّقت أنك قرعت البوابة. كل دقيقة قضيتها قبل مجيئك كنت أظنها ساعة.

– يا ستّير يا رب، ألهذا الحد الموضوع خطير؟

– لندخل إلى المضافة، فلسعات البرد تصفع وجوهنا، ولم نعد قادرين على تحملها.

دخل الجميع إلى المضافة وجلسوا حول المدفأة.

– عمّاه مرحبًا بك ، أنسيت صديقك عبدالله من السلام؟

– لا يا حبيبي أيمكنني أن أنسى حبيبي عبدالله؟

أخذه في حضنه ثم قبّله:

– عبدالله البطل، سامح عمك وصديقك، فأبوك صبّ عليّ تعجّله حتى أنسانيك، فأنت مثل أولادي بوركت من فتى.

- ما أحلاك يا عمّاه! لقد قلت : فتى.. قل هذا لأبي الذي مازال يعتبرني صغيرًا.

- لا ، عبدالله أنت فتى ملء ثيابك. أليس كذلك يا شيخ؟

- أبا علي أوافقك على أنه فتى بشرط أن يذهب للنوم.

- عبدالله أبوك غيّر رأيه فيك ، ما رأيك يا بطل أن تذهب إلى النوم حتى لا تخسر نظرة أبيك الجديدة بأنك فتى؟

- كُرمى لعيونك وعيون الشيخ سأذهب ، لكن عمّاه حاول أن تخفف معاناة أبي فمنذ العصر وحالته غير عادية. كم كنت أتمنى أن أخفف عنه.

- بوركت يا ولدي، واطمئن سأفعل ما أستطيع ليعود إلى ما تحب.

- تصبحان على خير.. أنا ذاهب.

- وأنت كذلك يا عبدالله الفتى البطل.

غادر عبدالله المضافة إلى غرفته لينام ، وهو يفكِّر مسرورًا بقول عمه أبي علي (فتى) أهذا صحيح ياعماه بأنني فتى؟ أطال الله في عمرك لقد غرست الثقة في نفسي، فأنت ممن تميّز من أهل القرية بالحكمة والأناة وحسن التدبير ، إضافة إلى صنيعك المتفرد في دفع معظم أموالك من بيع محاصيلك في تعليم أبنائك. فيقولون : إن أكبرهم سيتقدم هذا العام إلى شهادة ( بكالوريا) ليكون أول من وصلها من أبناء قريتنا. ما شاء الله ياعماه ! اقترن حديث عبدالله مع نفسه ومغالبته عداوة النوم الذي طار من عينيه.

في هذه الأثناء انفرد الشيخ بجاره أبي علي آخذًا نفسًا عميقًا ليشعره بحجم المعاناة التي أفقدته الاطمئنان، لكن أبا علي بادره:

- أبا فيصل ما لك يا رجل مهموم مغموم؟

- أخي أبا علي أنا في ورطة كبيرة أربكت تفكيري حتى شلته.

– خيرًا يا رجال لم آراك من قبل هكذا ؟ شغلت بالي ، فحالك لا تسر صديقًا ولا عدوًا. يا أخي أشركني معك؟

– اسمع مني إلى الأخير ، فالذي يؤلمني ويعكر مزاجي ، وأوصلني إلى هذه الحال إرسالي الحاجب إلى (بتيما) ضُحى هذا اليوم ليأتي لي بشخص يقرأ البريد ويرد عليه ، ففي البريد – كما تعلم – مصالح الناس، فخشيت ألا يعود قُرَّاء القرية قريبًا فتضيع مصالح الناس التي أؤتمن عليها... لكن تبدّل الجو المفاجئ وتغيره الكبير أرعبني ، فخشيت أن يصيب الرجل مكروه بسببي ، فأشر علي حتى أتجنب المسؤولية؟

لم يجب أبوعلي على السؤال وإنما طرح عليه سؤالاً :

– أنت تحمّل الأمر أكثر مما يحتمل ، فهل هذا الجو غريب عن منطقتنا؟

– لا ، وألف لا ، ولكن...

- لكن ماذا ؟ انتظر حتى الصباح ، فلكل حادث حديث.

- أخي لا أستطيع، فالنار تضطرم في داخلي لا ، لا... لن أتمكن من النوم، فقد حاولت إبعاد الحدث عن تفكيري لكنني فشلت ، وتذكرت قصة محمد ابن قريتنا التي رواها لنا الآباء عندما زار أقاربه في شبيه هذه الأنواء.

- يا رجل، لم هذا التشاؤم؟ اترك الأمر لله فلن يضيرك شيء ، فأنت تسعى للخير... صباحًا سأرافقك إلى بتيما للاطمئنان على الرجل مهما كانت الأنواء قاسية ، ألا تضيّفني الآن؟

- حقًا، لقد أنساني الحدث كل شيء.

أخذ المختار ملقطًا وفتح باب المدفأة وشرع يقلِّب مؤونتها ، فتبين أنها في الرمق الأخير ، فأخذ قطعة من الخشب ودسّها فيها ، ثم وضع إبريق الشاي على فوهتها الصغيرة منتظرًا أن يلامس حرها ما فيه ليغدو مقبولاً حتى

يقدمه لضيفه الذي بدد حديثه جزءًا من معاناة الشيخ. لم يطل الانتظار، تناول أبو فيصل كأسًا ثم وضع فيها قليلاً من الشاي وقرّبها من شفتيه متحسسًا حرارته، فوجده مناسبًا فأعاد الكرّة مغدقًا عليه من الإبريق حتى امتلأ وأخذ بأخرى وملأها وقدمها إلى صديقه أبي علي الذي تناولها، ثم شرع يرشف منها بسرعة حتى جاء على آخرها. تقدم إليه أبو فيصل ليملأ الكأس ثانية، لكن الرجل اعتذر وطلب السماح بالمغادرة على أمل اللقاء صباحًا ليذهبا إلى بتيما.

في أثناء حديثهما سمعا حركة خارج المنْزل، فأطلَّ أبو فيصل من النافذة ليتعرف مصدر الحركة، فلمح شبه شبح يتحرك، فلم يكد يصدق ما يرى، فقال: أبا علي أبا علي، انظر هل ترى ما أرى؟ حدّق أبوعلي من نافذة المضافة إلى الخارج فشاهد الفرس، فقال:

- أبا فيصل لقد فرجت؛ وصل الرجل ولله الحمد.

- ماذا تقول، لماذا لم يدق الباب؟

- لنخرج ولنر أولاً.

خرج الرجلان مسرعين إلى البوابة الخارجية. فتح أبو فيصل الباب الصغير، وأطل برأسه فرأى الفرس:

- هذه الفرس.. أين الحاجب يا أبا علي؟

- حقًا، إنه أمر غريب عجيب، ما الخطب؟

فتح أبو فيصل البوابة فانسلت الفرس إلى الداخل. لمح أبو فيصل جروحًا على ركبتيها وساقيها، فقال لأبي علي:

- انظر إلى ركبتَي الفرس وساقيها، فبم تفسر هذه الجروح؟

دقَّق أبوعلي أكثر بركبتَي الفرس وساقيها ولم ينبس ببنت شفة، وسرح.

لم يتمالك المختار نفسه منتظرًا الإجابة من أبي علي، فطرح عدة تساؤلات دفعة واحدة:

- ظني أن الفرس انزلقت ووقعت أرضًا ، فما رأيك ؟ لكن أين الحاجب ؟ ماذا حصل له يا ترى ؟ رباه سلّمه لأهله... أبا علي لاحظ الفرس بلا سرج أيضًا.

- أهكذا أخذها الحاجب ؟

- لا يا أخي لا.

رؤية المختار الفرس وحيدة وبلا سرج في وقت متأخر من الليل، وفي جو عاصف بارد ثلجي ؛ أطاح بكل ما تبقى لديه من صبر وعقل ، فغدا يهمس بكلام غريب لا يصدر إلا عن رجل سيطرت عليه الهلوسة أو حالة هستيرية... وهو من عُرف عنه التعقل والهدوء ، فتعالى صوته وعصبيّته إلى حد غير مسبوق.

حاول أبو علي التخفيف من حدة نزقه النابع من ارتدادات قد تلحق به إن أصاب الحاجب مكروه ، فرجاه أن يخفّض صوته في ليل ساكن كسكون أهل القبور لا تسمع فيه سوى زمجرة الرياح بين لحظة وأخرى. فرحمة الله

تغمدت أبا فيصل إذ لم يكن أحد يسلك الطريق في هذا الوقت المتأخر ، وبسبب برودة الرياح المحملة بنتف الثلج المتساقطة ، فكلما هبت ساق هواؤها لسعات باردة تصطك معها الأسنان.

في المقابل كان الشيخ يعايش شدةً من لون مختلف أنسته تلك اللسعات على عكس صديقه الذي اصطكت أسنانه بردًا ، فيفاجأ بكم من الأسئلة تتسابق إلى مسمعه من لسان المختار حتى كادت تربكه:

– أبا علي ماذا أفعل؟ أشر علي بالله عليك. برأيك أين ذهب الرجل؟ هل حصل له مكروه؟ يا ويلتاه لو حصل له ذلك. قل لي ماذا أفعل؟... لا لا ، لن أصبر حتى الصباح ، سأذهب إلى بتيما حالاً لأبحث عن الرجل وأعرف ما الذي حصل حتى ترجع الفرس وحيدة وبلا سرج.. ها ها ربما تكون الفرس قد أسقطت الحاجب في الطريق. يا له من مسكين إنه بحاجة إلى من يساعده ، لو ذهبتُ قد أساعده وأجنّبه مخاطر مهاجمة الضواري الجائعة في هذا الجو الفظيع.

حاول أبوعلي تهدئة سورة غضبه بالقول:

– أبا فيصل الله يخليك ، دعنا نفكر بتأنٍّ لنعرف ماذا سنفعل؟ بالله عليك اهدأ يا رجل، وأبق الأمر سرًا حتى لا يكثر اللغط في هذا الوقت المتأخر من الليل. تعال الآن معي ندخل إلى المضافة.

– أبا علي، أحرّ ما عندي أبرد ما عندك!

لم يقف أبو علي عند اتهام أبي فيصل له بعدم المبالاة ، فحال الرجل لا تسر صديقًا ولا عدوًا، بل قال بكل هدوء:

– لندخل يا أخي إلى المضافة ، وهناك قل ما شئت ، وسأساعدك على كل ما تريد حتى الذهاب معك أينما تذهب ، بالله عليك تعال معي.

أخذ بيده وسارا إلى الداخل ، محاولاً تهدئته ، وشرع يحدّثه عن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكيف تغيّر الواحد منهم كليًا من كاره للإسلام إلى محبّ له

مضحٍّ في سبيله ؛ حتى تغيرات الأمور كُليًا ، وأخذ يردد على مسمعه قول الشاعر :

ولربّ نـازلـةٍ يضيق بها الفتى
ذرعًا وعند الله منها المخرج
ضاقت ولما استحكمت حلقات
فرجت وكنت أظنها لا تفرج

بمثل هذا الوعظ ساق أبوعلي الكثير على مسامع المختار محاولاً التخفيف من وقع الحدث الذي أصابه عساه يُدخل على نفسه شيئًا من الراحة النفسية حتى يتمكن من رسم خطة تمكنهما من العمل بدءًا من يوم غد ، فقال لّمَّا شعر بنجاح حديثه :

– بو فيصل ، ريّح نفسك حاليًا ، وحاول أن تنام حتى الصباح وفي الصباح رباح إن شاء الله ، فسأذهب معك أينما تذهب للبحث عن الحاجب.

هدأتْ نفس أبي فيصل بعض الشيء ، وشعر ببعض الاطمئنان ، فإلى جانبه رجل سيحمل جزءًا من معاناته التي خفَّت حرارتها بعض الشيء ، فطلب من أبي علي المزيد من الحديث ليصرفه عن الوسواس الذي يؤرقه ، لكن أبا علي أنهى جلسته بمثل شعبي يردده الصغير والكبير قائلاً :

– من عمود لعمود يفرّجها الرب المعبود ، ألم تسمع يا مختار قول الله تعالى : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) ، فالمكتوب على الجبين راح تشوفه العين.

استشعر الرجل أن المختار هدأ روعه، فهمس :

– تصبح على ألف خير من الله، نم حاليًا وسآخذ البوابة معي.

ثم غادر إلى بيته بعد مضي هزيع من الليل.

استيقظ المختار كعادته لصلاة الفجر ، وبدأ ينتظر تقدُّم الوقت ليأتيه جاره. فأحبَّ أن يستطلع حالة الجو ، فخرج إلى فناء الدار ، ثم نظر للأعلى فرأى بوادر صُلح قد تعقده

السماء معه بعد عراك سابق كاد يودي به. لمح فيها مساحات من البقع الصافية، فاستبشر خيرًا آملاً أن يذهب برفقة جاره إلى بتيما لمعرفة مصير الحاجب.

ولما تأخر أبو علي عليه خشي أن تتراجع السماء وتغضب ثانية وتسحب صفاءها، فأرسل إليه ولده عبدالله ليناديه. جاء الرجل مسرعًا، واعتذر عن التأخير قائلاً: أنا رهن إرادتك.

استبشر الشيخ خيرًا، فما زال وجه السماء باشًّا، ما زرع في نفسه نتف أمل.

اتفق الرجلان على اللقاء قُرب المسجد بعد نصف ساعة حتى يتمكن كل منهما من تجهيز فرسه. لم يمضِ كثير وقت حتى اجتمع ركبهما وانطلقا قاصدين بتيما. فلما وصلا منتصف الطريق لمحا من بعيد رجلَين قادمَين نحوهما، أحدهما يسير على رجليه، والآخر يركب دابة، وباقترابهما أكثر تبيّن أن أحدهما الحاجب، فلم يصدّق المختار ما يرى، ظن نفسه في حلم، فرك عينيه وقال: أبا علي هل ترى ما أرى؟

فقال : نعم أرى صاحبك الذي أقمتَ الدنيا ولم تقعدها من أجله، ها هو بلحمه وعظمه أمامك.

نهر المختار فرسه لتسرع أكثر كأنه يخشى أن يهرب الرجل ، وبمجرد أن وصل إليه نزل مسرعًا ثم اتجه إليه وأخذه بالأحضان ، وهو يتنفس الصعداء ، وخرَّ لله ساجدًا غير مكترث بالطين. فمخاوفه هدأت ، وهواجسه تلاشت ، فقال بلهفة :خبّرني يا ابن الحلال ما الذي حدث؟

تدخّل أبوعلي مهنئا الحاجب وأردف :

- يا رجل ، تمنّيت أن أكون مكانك من كثرة حب الشيخ لك ، فمنذ أمس لم تهدأ له نفس حتى رغب في اللحاق بك ليلاً لما تأخرتَ ، وبخاصة عودة الفرس - التي زادت الطينة بلة - من دونك. أسمعنا يا رجل الذي حصل لك بعد أن تعرِّفنا بالرجل.

- شيخي هذا الر جل سيقرأ لك البريد ويرد عليه.

رحّب الشيخ بالقارئ وساروا عائدين إلى بيت جن ، وشرع الحاجب يقص عليهما ما جرى معه.

هذه الواقعة أثّرت في المختار أيّما تأثير ، وجعلته يصمم على إرسال ولده عبدالله إلى الكتّاب ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب وتلاوة القرآن فور افتتاح الحلقة الجديدة. ووضع نصب عينيه أهمية تهيئة الطفل نفسيًا للالتحاق بالكتّاب خشية أن يحصل له انتكاسة تنفّره من التعلّم ، كما حصل لأخيه الأكبر ، منتظرًا الخبر من إمام المسجد عن بدء التسجيل في الحلقة الجديدة. فكلما التقى الشيخ الإمام ألح عليه أن يفتح الحلقة الجديدة. فيأتيه رد الإمام :

– تريّث أبا فيصل قليلاً ، فالحلقة القائمة حاليًا ستنتهي بعد أيام ، لن يطول انتظارك بإذن الله.

نظر المختار إليه محدقًا والضحكة ملء فيه قائلاً :

- إذن انتظر شيخي ، لقاءات صديقك عبدالله في حلقتك تلك.

- حسنًا أبا فيصل، ألا يبدد هذا مخاوفك ويرغّب ولدك في الكتّاب ؟ سمعتك تقول بأن : (عبدالله صديقي) كيف حصل هذا؟

- ولدي يا شيخي الجليل يعتبر كل من يتردد على المضافة صديقًا ما داموا يسلّمون عليه، ويحدّثونه حتى تصوّر أن وجوده في المضافة ضروري لا يمكنني الاستغناء عنه ؛ لهذا أرى أن إرساله لك وإشعاره بأهميته مرهون بتمكّنه من القراءة والكتابة.

- أبا فيصل ، أمس شكا سكّان حارة المسجد إهمال عامل النظافة ، فهو لا يأتي يوميًا لإزالة القمامة التي تتراكم أمام بيوتهم فتسبب لهم الأذية في منظرها وروائحها ، أتمنى أن تستدعيه حتى تتأكد من الشكوى.

– أبشر شيخي سيحصل ، إن شاء الله اليوم ، طمئن المصلين الشاكين.

تآلفُ الرجلين وتعاونُهما هيّأ لهما تولي إدارة معظم الشؤون المجتمعية في القرية، فهما يعملان على إصلاح ذات البين ، ويحرصان على خدمة المواطنين حتى تستقر حياتهم ، كما أنهما يمثلان القرية في الاجتماعات والمناسبات الاجتماعية المختلفة على مستوى المنطقة كوجيهين.

# الفصل الخامس

مرَّت الأيام مسرعة كعهدها ، فأطلَّ الشهر الجديد برأسه يكنس ما تبقى من صفحات الشهر السابق ليتربَّع مكانه. في هذه الحالة من عادة الإمام أن يذكِّر المصلين بموعد التسجيل في الحلقة الجديدة التي ستبدأ مع بدء الأسبوع الأول من الشهر القادم.

هذا الإعلان أسعد المختار كثيرًا ، وحرّك فيه الآمال بأن يكون عبدالله من المتفوقين ، فالمعهود عنه ذكاؤه الفطري في كل تصرفاته بالمضافة مع روادها حتى بدا لمن يعامله أن عقله أكبر من سنه ، ولا سيما محادثته الكبار بكل رباطة جأش ، فلا يعتريه خوف بل تراه يبدي رأيه كرجل يسهم في حواراتهم ، متصورًا نفسه مؤثرًا ، وبخاصة لدى رؤيته الكبار الذين يصغون لما يقول ويبادلونه الحديث.

فكّر الشيخ في طريقة يرغّب ابنه بوساطتها في الالتحاق بحلقة المسجد، ويحبّبه في التحصيل العلمي. فقرر بعد طول تفكير أن يقدّم له هدية طالما تمنّاها، وسأل عنها بل طالب فيها، إضافة إلى لعبة المسدس التي أفرحته وأدخلت السعادة إلى قلبه مجرد أن قلّب المسدس بين يديه، فمنذ فترة خلت رأى عبدالله طفلاً يتباهى بدراجته الهوائية أمام أقرانه الذين ينظرون إليه مشدوهين وهو ينطلق بها مسرعًا كأنه (يجاكرهم)، لأنه الوحيد الذي يمتلك دراجة هوائية في القرية. كم مرة قال عبدالله في نفسه: أنا ابن المختار لا أملك دراجة كهذه! والله هذا عيب يا شيخ البلد. سأقول لأمي ليشتري لي أبي مثلها بل أحسن.

استغل الشيخ هذه الرغبة أحسن استغلال وسخرها في ترغيب عبدالله في الالتحاق بالكتّاب؛ لذلك قصد بيت الطفل مساء، وطلب من والده أن يشتري له دراجة شبيهة بدراجة ولده، كما رجاه أن يبقي شراءها سرًا، ويحتفظ بها حتى يطلبها منه.

بدأ الشيخ بين الفينة الأخرى يحدّث عبدالله عن دراجة الطفل، ويسأله: أتحب أن أشتري لك مثلها؟ إن اشتريتها لك فماذا ستفعل؟ أيمكنك قيادتها بسهولة؟

أشعرت إجابات عبدالله أباه بكم الرغبة الجامحة في امتلاك دراجة وقيادتها. فوعده أن يشتريها له بشرط أن يلتحق بالكتّاب، ويثبت تفوقًا على لداته.

وافق عبدالله على شرط أبيه وأصبح ينتظر بفارغ الصبر افتتاح الكتّاب. فإذا جاء الإمام إلى المضافة سأله:

– متى ستبدأ حلقتك الجديدة شيخي؟

– صديقي عبدالله أيام بسيطة تفصلنا عن بدء الحلقة.

تكرار السؤال من عبدالله للإمام أعطى الشيخ مؤشرًا عن نجاح ما يخطط له. فلما جنّ الليل قصد بيت أبي مأمون، وطلب منه أن يأتيه بالدراجة سرًّا.

في الليلة التالية استغل أبو مأمون جنح الظلام وحمل الدراجة بصندوقها الكرتوني، محاولا التواري عن الأنظار،

ولما وصل بيت المختار قرع البوابة. خرج الشيخ وتسلم الأمانة ، شاكرًا للرجل صنعيه ، كما تمنّى عليه أن يتفضّل غدًا بإرسال مأمون مع دراجته حتى يدرِّب عبدالله على القيادة.

جاء الطفل في اليوم التالي ومعه دراجته إلى زيارة عبدالله الذي أدخله مع الدراجة إلى فناء الدار ، بينما كان المختار يراقب من بعيد ماذا سيحدث بينهما ؟

طال حديثهما حول الدراجة ، ما دفع عبدالله ليبوح بالسر لرفيقه قائلاً : أبي سيشتري له دراجة مثلها.

وامتد الحديث بينهما ، فسأل عبدالله (مأمون)عن كيفية قيادتها وما شابه... ولما كسب ود الطفل رجاه أن يسمح له ليجرب قيادتها.

أخذها عبدالله فرحًا محاولاً السير بها في فناء الدار ، والطفل يمسك بها خشية أن يقع أرضًا. لم تفلح محاولة عبدالله الأولى في قيادتها ، فكرّرها غير مرة ، حتى استطاع

السير بها إلى مسافة بسيطة أشعرته بالحاجة لاقتنائها أولاً ثم يتعلّم قيادتها. أخذها مأمون وانطلق بها مسرعًا ما جعله يتحسر فصمم أن يتدرب أكثر ليكون مثله.

أنهيا لعبهما ، ثم دخلا إلى إحدى الغرف ، فقدّم عبدالله لصديقه مأمون قطعة من الحلوة ، واتفقا على متابعة التدريب حتى يتمكن عبدالله من قيادتها ليكون جاهزًا مجرد أن يشتريها له الشيخ، وسيخرجان للعب معًا.

غادر مأمون بيت عبدالله الذي أمّل أن يفي مأمون بوعده ليعلمه على قيادة الدراجة. وإذ بصوت المختار يناديه. أقبل نحو أبيه قائلاً: نعم شيخي ماذا تريد مني؟

- كيف رأيت صديقك مأمون؟

- إنه طفل رائع لقد وعدني أن يعلمني قيادة الدراجة مجرد أن تأتيني بها. - بإذن الله- لأكون قادرًا على قيادتها حتى نلعب معًا.

هذا المشهد وما بعده أظهرا للشيخ قدرة ولده على تعلم ما يجهله ، كما كشف كم الحنان الذي يعمر قلب الشيخ ، ومدى وعيه ومعرفته بنفسية الطفل حتى يوجّهها توجهًا صحيحًا ، ورصد لنا كذلك قدرة على الإقناع وحسن التعامل مع الأبناء في مجتمع قروي يعتبر الأب سيد القرار ، لا يُناقش ولا يُنازع فيما يطلبه ، فلا يسمح بالاعتراض على آرائه مهما كانت ، وما على الآخرين إلا أخذها وتطبيقها ، كما جلّا الرغبة الجامحة لدى الأب في أن يحقق ابنه ما يطمح إليه من تعلّم ليكون عونًا له في عمله. فاتفق الشيخ وعبدالله على أن يذهب عبدالله إلى الكتّاب ليسجل في الحلقة الجديدة المزمع افتتاحها مقابل أن يأتي له الشيخ بالدراجة الموعودة الشبيهة بدراجة مأمون.

شرع كلاهما من اليوم التالي يطبّق بنود الاتفاق ، فعبدالله سجل اسمه ، والمختار جاء بالدراجة وقدّمها إلى ولده ليصبح حلم عبدالله حقيقة واقعة. أخذ يتلمسها غير مصدق أنها له ، لكن رغبته في قيادتها مكّنته من قيادتها بسرعة إلى درجة أنه

تعلَّق بها كثيرًا. فملأت وقته ، وصار يصطحبها أينما يذهب.

ذات يوم ذهب عبدالله إلى بيت مأمون ليطلعه على مستواه في قيادة الدراجة، فرجاه أن يرافقه في مشوار على الطريق العام. وافق مأمون بعد أن استسمح أمه.

انطلق الطفلان على دراجتيهما ، وفي الطريق اقترح عبدالله على مأمون أن يتسابقا. تفاجأ مأمون بهذا الطرح وخشي ألا يكون عبدالله قادرًا على التحكم بمقود الدراجة وهما يسلكان طريقًا محفورًا في كتف الجبل بالكاد يستوعب حافلة، فإن واجهت الحافلة سيارة مقابلة تضطر إحداهما إلى التوقف حتى تمرّ الأخرى. إضافة لخطر آخر مبعثه أن طرف الطريق الثاني يشرف على واد سحيق فيه يجري النهر الأعوج ، فأي خطأ من قائد مركبة ما يسبب كارثة ، فمأمون خشي أن يخطئ عبدالله فيحصل ما لا تحمد عقباه. تردد أولاً ثم قال : ما رأيك يا عبدالله أن نؤجل هذه المسابقة إلى وقت آخر ، فقد سمعت أن خالدًا ابن جيراننا

سيشتري دراجة وعندها نصبح ثلاثة نتسابق فيكون الحافز أقوى. لكن إلحاح عبدالله وصل حد التحدي ، فخشي مأمون أن يظن عبدالله أنه ضعيف يخشاه ، فوافق على مضض ، مشترطًا أولا أن يلتزم كلٌّ بمساره طيلة السباق ، فعبدالله يسير بجانب الجبل ، ومأمون في الطرف الآخر المشرف على الوادي. وثانيًا أن تنتهي مسافة السباق مع أول انعطاف ، فمن وصله أولاً يكن الفائز. أما الشرط الأخير فهو أن يخبر كلاهما أهله بمن فاز.

وافق عبدالله على الشروط التي وضعها مأمون. توقف الطفلان استعدادًا لبدء السباق. عدّ مأمون بصوت مرتفع (٣–٢–١). انطلق كلٌّ في مساره ، لكن قلة خبرة عبدالله جعلته يندفع بأقصى سرعة ممكنة. في المقابل كان مأمون متدرجًا في السرعة غير مكترث بتقدم عبدالله. لم تمضِ إلا لحظات حتى تفاجأ عبدالله بدراجة مأمون تقترب منه ، فحاول الضغط بكل قوة أوتيها على دواسة الدراجة ، فخانته قوته التي استنفدها من قبل فتمكن مأمون من

تجاوزه. حاول عبدالله ثانية ، متابعًا الضغط على الدواسة غير مكترث لما أمامه ، فارتطمت العجلة بحجر جعل المقود يرتج بين يديه ، فحاول تثبيته ، لكنه فشل فدارت العجلة وسقط أرضًا.

سمع مأمون صوت ارتطامه أرضًا ، فنظر وراء فرأى صديقه ينهض والدراجة ملقاة أرضًا. أوقف دراجته ، وقال: سلامات سلامات لك. بدا عبدالله وهو ينفض التراب عن ملابسه خجلاً ، ثم أمسك بالدراجة وقال :

– ما رأيك أن نبدأ من جديد ؟

ردّ مأمون :

– لا يا عبدالله ، يكفي هذا اليوم ، وأعدك أن نكررها مع خالد في مكان آخر يكون أوسع من هذا الطريق ، فلله الحمد أنك لم تتعور ، وضرر دراجتك بسيط. تصوّر معي لو أن حافلة في الطريق ماذا سيحصل ؟ ما رأيك أن نعود إلى القرية ؟ كفانا اليوم.

تردد عبدالله في البداية ثم وافق. أحب مأمون التأكد من سلامة مقود وعجلات الدراجة. فأخذها من عبدالله وأعطاه دراجته قائلاً، لنسر ببطء أولاً ثم نزيد سرعتنا رويدًا رويدًا، وسأسير أمامك.

انطلقا ببطء، ولما زاد مأمون السرعة قليلاً شعر بانحراف في المقود ، فترل أرضًا ووضع العجلة الأمامية بين فخديه ليعيد المقود إلى وضعه الصحيح. كرَّر المحاولة غير مرة حتى تمكّن من إعادته ، كما تفحّص العجلتين ، ولما تأكد من سلامتهما أعادها إلى صديقه، ثم تابعا طريقهما إلى القرية.

هذا الحدث كشف وهم عبدالله بأنه متمكن من قيادة الدرجة، لأن الظن لا يغني من الحق شيئًا، فعاهد نفسه منذ هذه اللحظة أن يتأنى، مستفيدًا من الدرس، فلا يتسرع في الحُكم من خلال المظاهر الخادعة. كما تعهد أن يزيد فترات التدريب قبل بدء حلقة الكتّاب ، التي ستأخذ جزءًا كبيرًا من وقته ، فالدراجة ستكون وسيلته إلى الكتّاب ، وتخيّل المشهد لو حصل أمام الأطفال. فما ردّة فعلهم ياترى ؟

بالتأكيد سيكون مبعث سخريتهم، وسيسقط من أعينهم، ولن يعبّره أحد منهم، وهو المدّعي بأنه يجالس الكبار ولا يحب مجالسة الصغار.

شكر عبدالله فعل مأمون ووعده بأن يتدرب جيدًا ليكون متمكنًا من القيادة حتى لا يسقط أرضًا إن نازل أحدًا بل سيبزه.

حركة الليل والنهار دائبة لا تتوقف، فسرعان ما مرّت الليالي، وقربت لعبدالله ليلة الافتتاح التي ستكون بالتأكيد مختلفة عن غيرها، ففيها سيتمنى ألّا يتنفس الصبح، وألا تشرق الشمس، ولو أنها طالت وطالت حتى لا يتغير نهج حياته مع رغبته الجامحة في الكُتَّاب ليحقّق تطلّع أبيه.

وفي الجانب الآخر من البيت كان الوضع مختلفًا، فالأسرة فرحة بالقادم من الأيام، حيث ترى إرهاصات تفوق عبدالله، مستبعدة أن يتكرر فشل فيصل. شعورها هذا يخالطه أحيانًا حذر، فالوالدان يحاولان إغراء عبدالله بالعديد من المرغِّبات وتشجيعه إلى أبعد حد. فليلة الذهاب

إلى الكتاب كانت مختلفة بكل المقاييس لدى الجميع، لكنهم جميعًا متفقون على ذهاب عبدالله صباحًا إلى الكُتَّاب...

قال الشيخ: ولدي اذهب ونم مبكرًا.

ردَّ عبدالله قائلاً: أبشر يا شيخ.

أمسك بيد أمه التي أصرت أن ترافقه إلى الفراش، حيث اندسَّ فيه آملاً أن ينام كالعادة، لكن النوم عانده هذه المرة وطار من عينيه كلما أطبق جفنيه.

كانت أمه تظنّ أنه مستغرق في نومه، فلما سألها الشيخ قالت: منذ فترة نام كبدي.

كان عبدالله يسترق السمع ولا يود أن يشعرهما بأرقه، فهو راغب في النوم الذي جفاه وناكفه حتى مضى هزيع من الليل، لكنه أخيرًا رضي عنه، فسرقه من دون إنذار، فغط فيه مستغرقًا، لم يوقظه إلا حركة يد حانية تتلمس جبينه وتهمس: عبدالله.. حبيبي.. قم لقد أشرقت الشمس يا كبدي.

فتح عبدالله عينيه ليرى شمسه في مواجهته تبتسم، وتقول: أعددت لك طعامًا طالما تمنيته.

نهض من فراشه متثاقلاً ومتشوقًا لمعرفة هذا الطعام. توجّه أولاً ليغسل يديه ووجهه، ثم سار إلى مكان الطعام ليتفاجأ بأبيه ينتظره. حيّاه. رد الشيخ التحية وقال: تعال حبيبي تناول طعامك حتى نذهب معًا إلى الكُتَّاب.

نظر عبدالله إلى أبيه مستغربًا وقال:

- أتذهب معي يا شيخ إلى الكتّاب؟

- ولم لا؟ هل لدي أغلى ممن سيذهب إلى حلقات القرآن الكريم؟

- شكرًا أبي، ربي لا يحرمني منك ومن أمي.

ثم أخذ الطعام مع أبيه، ولمّا انتهى غسل يديه وفمه، وتوجّه إلى الغرفة ليغيّر ملابسه، لكنه تباطأ لغاية في نفسه. فسمع الشيخ ينادي:

– عبدالله، أسرع حتى لا نتأخر، فهذا أول يوم، لتكن من السباقين إلى الكتّاب حتى يراك صديقك الشيخ ويعرف مدى رغبتك في التعلم.

أنهى عبدالله ارتداء الملابس، وخرج من البوابة ممسكًا بيد أبيه سائرين إلى المسجد.

في الطريق كانت تدور في رأسه حزمة متناقضات بعضها مرغوب فيه، وأخرى غير ذلك. كان يرغب في رؤية صديقه مأمون أولاً ثم بقية الأقران ليحدثهم عن دراجته الجديدة التي سيأتي بها غدًا ليروها ويعرفوا مدى تمكّنه من قيادتها. هذا الخاطر كان ينافسه بالمقابل خواطر، كرغبة البقاء في المضافة، ومقابلة الناس والترحيب بهم ومحادثتهم، والاستيقاظ وقتما يشاء، والحرص على استمرار العلاقة مع رواد المضافة الذين يبادلونه الحب، فإذا جاؤوها ولم يجدوه أيسألون عنه؟ إن ذهابه إلى الكتّاب يوميًا سيبدّل نمط حياته الرتيبة التي ألفها، وستمحو صفحات غيابه المتكرر عن المضافة تلك الصداقات التي كونها مع رواد المضافة. أمّا

حياته الجديدة بالذهاب إلى الكتاب فتحتّم عليه المذاكرة ليكون مجتهدًا محققًا ما وعد به أباه حتى يبر بعهده، فكلمته كلمة رجل (ملء هدومه)، ومن تلك الخواطر سؤال دائم الحضور في ذهنه مفاده :من سيقوم بعملي في المضافة ؟... كانت تستعصي عليه الإجابة، لكنه قال: بالقطع سأخسر الكثير، سأخسر صداقة الحكواتي والعم أبي صالح وأبي عبد الغفور وجارنا أبي علي، ما أعطفهم علي، وما أجملهم وهم يسألونني عن مكان أبي عندما يقبلون إلى المضافة مع علمهم بمكانه! تنهّد وقال: المهم أن يتحدثوا إليَّ كلما رأوني. فإن رأوني مرة وكرروا سؤالهم لي عن أبي فهذا كاف، ودليل على بقاء الصداقة، فسؤالهم لي عن أبي ديدنهم فكلما أقبلوا إلى المضافة ، وما إن أقدِّم لأحدهم فنجان القهوة قبل الحاجب يهمس لي: (على شانك أشربها لأنها من إيدك). أما العم توفيق الطيب الذي يعطيني كلما جاء إلى المضافة (سكرة) بالنعناع، يا الله ما أطيبها! لمن ستعطيها يا عم توفيق إذا لم تجدني؟ يا ليتك تخبّئها لي...

هذه الخواطر والتساؤلات تزاحمت في مخيلته وشغلته عن أبيه الممسك بيده، ليبدو كمن يعيش في عالم آخر، كانت تلحّ عليه بعد أن استعصت عن الإجابة، إلا أنها بالتأكيد تركت أثرًا في شخصية عبدالله، فلو وضعه في كفّة وفي الكفّة الأخرى حرّيته لرجحت كفّة الحرية، فقد اعتاد على الخروج والعودة متى شاء؛ فلا يثبت على حال. أما وضع الكتّاب فمختلف بالكلية عن المضافة ففيه جلوس طويل، وراعٍ يأمر فلا بد من تنفيذ أوامره، فلا دلع كما في المضافة. ناهيك عن كلام أطفال الحلقات السابقة عن عصا الإمام التي لا تشبع من تقبيل أيديهم. ولكي تجنّب يدك قبلاتها عليك أن تكون جادًا ومجتهدًا وإلا...

هذا استعرضه عبدالله كشريط يمرُّ سريعًا، مستغلاً سكوت والده الذي فاق كل آباء من يأتون إلى الكُتّاب، في مرافقته له إلى الكتاب أشعره بالتميّز حتى في المجيء إلى الكتّاب من غيره. فالشيخ بشحمه ولحمه يأتي به إلى الكتّاب وعلى مرأى الجميع فهذه الشخصية الاعتبارية،

مسموعة الكلمة مهابة الجانب ، المحترمة من أهل القرية جميعهم ، صغيرهم وكبيرهم ، بل يمتد احترامها إلى خارج القرية بما يكنّه لها أهالي القرى المجاورة من تقدير وتأثير ، فالمختار سليل أسرة معروفة في تولّيها مختارية بيت جن ، كما يقولون :(كابرًا عن كابر).

أخيرًا وصل الشيخ وابنه إلى الكتّاب ومعهما تتوافد لدات عبدالله زرافات ووحدانًا من الأزقّة الواصلة إلى المسجد ، فالصبي الأكبر يأخذ بيد الأصغر المتردد في مشيته عله يؤخر وصوله للعالم الآخر الذي ينتظره ، ما يدفع أخاه الأكبر إلى جرّه من يده بقوة فكأنه يسحبه سحبًا ، ففي روع الصغير كثير خوف من مستقبل مجهول. ولا يعرف ما سيحدث له بعدما سمع ممن سبقوه إلى الكتّاب كلامًا عن الشيخ لا يطمئن. كم مرة سمع الحديث عن عصا الإمام وهي تهوي على الأيدي الطرية فتترك أثرها فيها! كم مرة فشلت استغاثات طفل ووعوده للإمام بأنه سيحفظ الآيات مستقبلاً! كم مرة ذرفت الدموع وتعالت أصوات الرجاء

أمام عصا شرهة لا تشبع من قبلاتها لأيدي الصغار ، كأنّ بينها وبينهم ثارات قديمة حان وقتها ، فها هو حاملها يشفي غليلها من خصم طال انتظاره ، فقد سنحت الفرصة ، فمهما استغاث المسكين المنكود متضرعًا بأناته فليس من مجيب. فالشيخ يصمّ أذنيه عن سماع العويل ، وتضرّعات الاستغاثة التي يطلقها المتلوي تحت قبلات غير مرغوب فيها فيحاول ببراءته سحب يده عندما يهوي الشيخ بعصاه ، فيأتيه رد فعل الشيخ سريعًا ، فيمسك بيد البريء الطرية ثم يشرع يضربها بقوة وبسرعة ليلقنه هو وغيره درسًا لن ينسوه. تتوالى التضرعات والاستغاثات والأنّات ، لكن لا مجيب ، فكلها تتهاوى أمام إصرار الشيخ على تأديب الطفل.

هذا الاسم الرنّان البرّاق في عمله القاسي يغرس شرًا وحقدًا وكراهية في نفس بريئة قد يقابلها الطفل بكراهية للتعلم على الرغم من بساطته ومحدودية أيامه، فالصغير أمام فشل تضرعاته وأنّاته يسقط أرضًا عله يستريح قليلاً من

لسعات عصا قاسية ، لكنها تبدو أقل قساوة من قلب الممسك بها. هنا ترى الشيخ يسحب الصبيّ من الأرض بقسوة أشد ، معتبرًا ذلك تحديًا له وينتقل ليضربه على رجليه مكملاً مسرحية التأديب بل التعذيب.

هذه المشاهد تتكرر يوميًا أمام الصبية الصغار الذين ينقلونها معهم إلى خارج الكتّاب وإن كانت متفاوتة بين صبيّ وآخر ، فيسمعها الكبار في جلساتهم ، والصغار لدى لعبهم في الحيّ فتلمح في وجوههم البريئة وعيونهم حيرة غريبة مبعثها معروف على الرغم من بعده عنهم ، فتتكوّن لديهم ردة فعل لا يمكنهم الإفصاح عنها والحيلولة دونها ، فأهلوهم يعرفون ومع ذلك يصرّون على إرسالهم إلى الكتاب. ليصدق عليهم القول التالي : (مكرهًا أخاك لا بطل).

هذا الطفل المتردد يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى. كم يتمنى عدم الوصول أو التأخير في الوصول إلى الكتّاب على الأقل. المكان معروف ويراه يوميًا وربما دخله من قبل ،

لكنه لم يدخل ليحفظ القرآن، ولم يرتبط بدوام محدد بزمن، أما اليوم إذا دخله فعليه القيام بأعمال ممزوجة بالأمر والزجر من سادنه، وربما الضرب بعصا غليظة لا تعرف الرحمة. هذا الشعور يأتيه أكثر كلما اقترب من المسجد عين مكان (الكتّاب)، وهو ليس ببعيد.

حذَرُه وما رسمه في خياله لا جدوى منه، فلا بد من الانقياد للأخ الأكبر الذي يسحبه من يده وقد يشدّه المرة تلو الأخرى مع تأنيب قد يصل إلى التهديد بالضرب لأنه قد يسبب بتلكُّئِه هذا التأخير عن بدء الدرس وتعريضهما منذ البداية للمساءلة التي يتبعها ضرب بالعصا، وما أدراك ما عصا الإمام؟ إنها جوعى منذ الصباح، متلهفة إلى لثم أيد ناعمة طالما اشتاقت لها، فمنذ إغلاق الحلقة السابقة لم تمارس حبّها حتى ظنّت بنفسها الظنون. كم مرة تساءلت عن سر إهمالها بقولها: أمقصرة أنا في عملي أم جيء ببديل عني؟ إن جاء الإمام بأخرى فأين هي مني؟ ضربتي لم تربي وأنا مستندة على الجدار تحوطني من الأعلى كرة تحول دون

قلبي رأسًا على عقب... شطح خيالها أبعد فقالت : هل جاء حاملي ومشرفي بأخرى؟ أتكون لها كرة في الأعلى أم بلا ؟ حسنًا إن كانت بلا كرة فهي إذن لا يُعرف أعلاها من أسفلها ، ولن تكون مثلي أبدًا ، فأول مثالبها أنها غير معروفة الرأس وكيفما وضعت استندت على الجدار ، كما أنها غير مرهوبة من الصبيان ، وقد تسبب عند مسكها تعبًا في يد الإمام لسهولة انزلاقها... رجعت العصا إلى نفسها والغصة تكاد تخنقها وهي تندب حظها وتتمتم : يا مسكينة ، أتظنين أن كرتك هذه ميزة لصالحك ترفع من قدرك ؟.. لا لا ، أنت واهمة جدًا ؟ لو كنت بلا كرة لسهل على الشيخ استخدامك من طرفيك ، ولما عرف أحد أعلاك من أسفلك، ولسهل على الشيخ أن يضعك في أي مكان ، وقد يتمكّن من إخفائك عن الأنظار في كمّه الغيران من مسكّك بالبنان لتكوني بعيدة عن أعين الصبيان ، ولكان وقعك وهو يستلّك من كمه يخيف الفرسان ، ويطيّر النعاس من الوسنان، ولدبّ رعبك في القلوب حتى الشبان ، ولتحقق

بك ما يصبو إليه الشيخ من حفظ الأولاد للقرآن ، فنال على هذا من أهلهم الشكر والعرفان ، ولزاد عدد رواد حلقات البيان ، وارتقى زمان الشيخ على ما سبق من أزمان.

أخيرًا وصل الطفل المرعوب المكره مع أخيه إلى المكان ، فشاهد بعينه ما يبعث الدهشة والاستهجان! شيخ القرية في عين المكان مصاحبًا ابنه إلى بيت القرآن ، لم يكن تساؤل الطفل الكاره للكتّاب وغيره من الأطفال عابرًا غريبًا عن الأذهان ، فقد تلمح في عيونهم الحيرة لجهلم سر مجيء الشيخ نفسه مع ابنه الذي بدا كالوسنان ، فهو يفكّر فيما سيحمله هذا اليوم له وللصبيان خوفًا مما لم يكن بالحسبان. فتفاسير الأطفال تباينت ، منهم من ظن أن الصبي لا يعرف المكان ، وآخر يقول : هل يخاف عبدالله المجيء وحده إلى بيت الرحمن ؟ وثالث أخشي الشيخ على ابنه ألا يأتي إلى منهل القرآن ؟... وهكذا دواليك من تساؤلات تنمّ عن براءة في مثل هذا المقام ، لكنها بالقطع كلها تبقى بعيدة عن

عين اليقين. فكل أطفال القرية يعرفون المسجد وإمامه بل يعرف بعضهم بعضًا ، فمنذ أيام خلت تخرّج على يدي الإمام صبية فرحت بهم القرية كلها ، وتمنّى كثير من المتسائلين لو كانوا مكانهم.

كان عبدالله يتفحص الوجوه التي يعرفها والتي قد لا يعرفها حق المعرفة بحثًا عن وجه طالما انتظر مجيئه ليخفّف معاناته وخوفه من المجهول ، لكن انتظاره لم يطل ، فالفرج قادم ، لذلك تنفّس الصعداء عندما لمح صديقه مأمون الذي أحبه وارتبط معه بصداقة نامية مع مراحل التدريب على الدراجة ، فالذي بينهما لم يكن بينه وبين الآخرين الذين عرفهم في أثناء اللعب وما شابه ذلك. فما إن لمحه من بعيد حتى انهالت عليه أكوام الذكريات الجميلة التي عاشاها في كل لقاء جمع بينهما ، لقد استأنس عبدالله كثيرًا باللعب معه في أزقة القرية ، وهما ينطلقان على دراجتيهما ، فعهد صداقتهما بدأ قبل شرائه الدراجة ، حيث زار كلاهما الآخر ، وغير مرة أعطى مأمون عبدالله دراجته ، كما علّمه

على قيادتها. فلما اقترب مأمون أكثر من المسجد سحب عبدالله يده من يد أبيه، وهرول مسرعًا ينادي : مأمون، مأمون... هذا التصرف البريء أسعد الأب على الرغم من مفاجأته، لكنه في الباطن بدَّد بعضًا من مخاوفه، بل بعث في نفسه بعض الاطمئنان بأن ابنه سيبقى في صحبة صديقه ولن يطلب إليه العودة هذا اليوم على الأقل، فالسرور الذي غمر عبدالله بدا واضحًا على قسمات وجهه وهو يقترب من مأمون، ثم لقاؤهما الحميمي شجّع المختار على إنهاء رحلته قافلاً إلى البيت بعد أن اطمأن على فلذة كبده، فأومأ له بيده، وترك للإمام بقية المهمّة بعدما أوصى بالطفلين.

كان الأطفال يلعبون في باحة المسجد، فرحين بهذا اللقاء الجامع. يتراكض بعضهم خلف بعض ناسين أو متناسين حلقة الشيخ التي جاؤوا من أجلها... ليقطع هذا الانسجام والاتساق فجأة صوت جهوري يقول : أولاد، أولاد، تعالوا إلي... إلي بسرعة تعالوا.

أقبل الأطفال نحوه تاركين وراءهم كل شيء ، وعيونهم شاخصة إليه وترمق أحيانًا ما في يده من عصا غليظة مرعبة، فمن يرها من دون أن تلثم يده لتذيقه طعمها المستكره الممجوج يرتقص خوفًا ، وبخاصة عندما ينقّلها الشيخ بين يديه.

يا لَلهول ! فمنذ الثواني الأولى بثّ الإمام الرعب في نفوسهم! واشرأبت نظراتهم غير المستقرة تنظر يمينًا وشمالاً وفق حركة العصا بين يديه وما بعثته من الرعب الذي ينتابهم ويملأ جوانحهم خشية أن تصيب قبلاتها أيديهم الطرية. كم تبدو عصا الشيخ شرهة لا تشبع ولا ترتوي ، بل لديها شغف في تقبيل كل الأيادي من دون فتور.

مثل هذه الخواطر تقاطرت إلى مخيلة معظم من جاء إلى الكتّاب ، لكن عبدالله الذي ترعرع في بيت يستقبل كل وافد إلى القرية صباح مساء لم يخطر له المشهد بهذه الصورة المرعبة ، فتأثره فيه كان أقل ، إذ لم يذق طعم مثيلاتها في بيتهم ، فأبوه حسب عُرف القرية قدوة للناس ومثلهم

الأعلى ، يترفع عن مثل هذا السلوك القاسي الذي يتعامل به الآباء مع أبنائهم إن أخطؤوا ، فالشيخ يستبدل به إرشادًا وترغيبًا و ترهيبًا من دون استخدام هذه الأداة المرعبة ، فلقب مختار – يعني شيخ القرية في الجانب السياسي والاجتماعي والخلقي – يحمِّله هو وأسرته أعباء كثيرة مادية ومعنوية وسلوكية قد تبرِّر لغيره فعلته إن وقع فيها أو مارسها ، لكن شيخ القرية بالذات يتعالى عن فعلها بل هي مستبعدة ومستهجنة. كل تصرفاته محسوبة عليه ، فالناس يتأسون به ويقلدونه كأسوة حسنة ويجارونه فإن حصل فبها ونعمت وقد تحقق الهدف. أما الفعل السيئ فيحاول جاهدًا أن يترفع عنه ولا يأتيه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ؛ عملاً بقوله تعالى : (لايكلف الله نفسًا إلا وسعها). فإن وقع منه خطأ ، وطلب من غيره البعد عنه فهل سيستجيب ؟ بالقطع لا.

لا تنهَ عن خلق وتأتيَ مثله

عار عليك إذا فعلت عظيم

أبواب مضافته مفتوحة ليل نهار لأهل القرية ، ولكل طارقٍ. ممارساته يصعب التستّر عليها ، فجُلها مكشوفة ؛ لذلك يحسبها بدقة لتكون متزنة مراعية الشرع وأعراف الناس.

في ربوع أسرة غير متعلمة ، لكنها واعية بالفطرة ، عاش عبدالله متأثرًا بها ، وبالبيئة الجميلة ، فكثيرًا ما تكون الصورة المرئية أبلغ في التعبير عن الحقيقة من كلمات المعجبين كشاعر أو رسام يحاولان إظهار الجمال الذي أودعه الباري هذه البيئة. ترعرع الصبي الذي رضع لبان حبها منذ طفولته فتعلق بقريته التي تميّزت بموقعها الغريب العجيب بفضل الله ، جلت عظمته ، حيث حباها وميّزها من القرى المكشوفة لعابري الطريق ، أما هي فلا يراها العابرون في الطريق بل تفاجئهم ببيتها الأول الذي يفضي إلى قرية تتكئ على نتوء جبل يحمي مسير النهر الأعوج فيلهج قائلاً : سبحان الله ما هذا المشهد الغريب! كيف تمكّن الإنسان من استغلال هذه الفسحة البسيطة على ضفتي الأعوج واللتين

لا يتجاوز عمق الواحدة منهما على ضفتي الأعوج مئات الأمتار في أبعد نقطة من النهر. فيقر العابر بحنكة وحذاقة بُناة بيوتاها، ويتخيل كم الجهد الذي بذلوه ليقضموا جزءاً من الجبل سعيًا وراء زيادة مساحة أكبر للعمران. حتى الوصول إليها يلزم الزائر أن يأتي من جهة الشرق أو الغرب حصرًا ليسير على شفة وادٍ سحيق ممتد في قعر الجبل الهرم، والذي يضم أعلى قمة في تلك البقعة الجميلة. أما الجهتان الأخريان اللتان تحتضنان البلدة فيتعذر على المرء تسلقهما لحدة ارتفاعهما شبه القائم لشفتي الجبل المتبسم من زمان مضى إثر معركة طويلة بينه وبين أم الدنيا التي ركزت على نزع ردائه الأبيض، لكنها فشلت فتركته متبسّمًا ليحتضن بين شفتيه المفترّتين واديًا زيّن ربُّ الكون جانبيه بأشجار الصفاف الباسقة المتراقصة دومًا، فمع أهون هبَّة ريح تغازلها تجيبها الأشجار متغنّجة لتعبّر عن مقدار سعادها الغامرة، وبخاصة وهي ترشف من ماء الوادي الطبيعي النقي الذي ربما يكون الأنقى على مستوى العالم، فضلاً عن استنشاقها

هواء طبيعيًا لا يشوبه أي تلوث ، ما انعكس على أوراقها نضارة ، فمن ينظر إلى أوراق أشجار الصفاف يستقرئ مقدار النضارة والصفاء فيها على الرغم من ضيق المسافة التي نمت فيها ، وقلة الفترة التي تتبسم فيها الشمس لها على مدار العام ، ما يجعلك تظنّ أن الشمس بدورها رغبت في معاقبة النبات والإنسان بجريرة تحدي الجبل لها فحجبت ضوءها عن الوادي لأطول فترة ممكنة ، بل وصل تأثير احتجابها إلى قاطني الوادي الذين لم يكونوا أقل من حاضنهم الجبل في الصمود والتحدي أمام الشمس وكأنما الشاعر عناهم بقوله :

والذي حارت البرية فيه

حيوان مستحدث من جماد

هذا الإنسان العجيب كجبله وواديه مدَّ يده إلى الجبل تنهش بطنه حتى تمكنت في نهاية الأمر من بناء مساكن امتدت أُفقيًا عبره يمنة ويسرة كشريط طويل امتدّ على جانبي الوادي السحيق الغائر في سفح الجبل المتطاول ، فلما

ضاق عليه شريط سكنه عبر هذا الامتداد خشي أن يبتعد عنه أخوه، فبدأ تحدّيًا جديدًا مع الجبل المبهور بصموده أمام الشمس وأشعتها الحارقة بكل جبروتها وحرارتها الملتهبة لينتزع مكافأة على هذا التجلد اسمًا لم يسبق إليه من قبل (جبل الشيخ).

أراد إنسان هذه البقعة المستحدثة العجيبة شبه الخارقة بما تعنيه الكلمة من معنى أن يثبت هو الآخر جدارته وهمته ليقول للجبل بملء فيه: نحن جزء عضوي منك، لمَّا ضاق شريطك عن استيعاب تكاثرنا ونمو بيوتنا بدأنا بالصعود عموديًا ننهش صدرك العريض حتى نهيّئ أرضًا مناسبة تصلح لإشادة منازل تليق بنا، وتمنحنا الأمن والأمان، وتكشف لروادك مبلغ نشاطنا وحُسن صنيعنا. فإذا ما أغضبك فعلنا أرسلت وفود مائك غزيرة تفيض عن مجرى نهرك فتغرقنا وتطمس معالمنا، وتشتت أبناءنا وتروعهم علّنا نخفف من غلوائنا، وإلا ضاعفتها متتالية، مستغلاً البرْد الطاغي الذي يزمجر هواؤه معطلاً وسائل حياتنا اليومية.

ماذا سنفعل لكي نجنّب أهلينا عقابك وزفراتك ؟ قمنا ، جبلنا الأشم ، بتقوية بيوتنا بصخور بطنك الصماء ، ونظرنا إليك عاتبين ، ألست أنت من سمحت لنا ؟ لقد رضيت لنا أن نسكن في أحضانك ، كما شجعتنا على تحصين أنفسنا بولوج قلبك ، جاعلين منه الملجأ والملاذ الآمن والحضن الدافئ.! إننا نستغرب رغبتك في تحطيم معنوياتنا ومنازعتنا وقهرنا بل هلاكنا باستبدالنا آخرين أعظم منا قوة ، وأكثر منا اعتزازًا بشموخك وصمودك في مواجهتك المفتوحة مع الشمس ، فلا تحسبنَّ يومًا أن من سيأتي بعدنا سيكون خاضعًا لسطوتك وجبروتك ، فبني البشر يا سيدي فضَّلهم ربهم الذي أوجدك على كل مخلوقاته ومنحهم العقل. أفتظن أنك بمجرد أن ترسل دفقات مائك الغزير سيتركون ديارهم ويولّون هاربين؟ هذا إن استطاعوا الفكاك والهرب.

جارنا المعطاء ، نحن نعتز بأنسك وجيرتك وبالسكن في حضنك آملين أن تمنحنا حنانك وتهبنا من عطاءاتك التي لا تنفد. نحن منتمون لك ، فأنت كبيرنا وحامينا وتاج رؤوسنا،

معك نحيا، وبظلك نتفيأ. خيراتك تمنحنا قوة وعونًا على هذه الحياة القاسية، فأنت لنا حصن منيع، وحام لا تُؤتى حماه، بجوارك نأمن بوائق البائقين، ومداهمة المداهمين، فأعداؤنا على هذه البقعة كثر يتربصون بنا الدوائر حتى يفتكوا بنا ويأخذوا أماكننا التي تعبنا كثيرًا في تشييدها، فالله اللهَ فينا. في ظننا أن وجودنا في جزء منك أكسبك جمالاً، وجعلك مهوى نفوس تقصدك من كل حدب وصوب لترى بيوتنا المخبوءة في سفحك، فاحتضانك لها عكس آيات من الجمال غدا ملهمًا للفنانين على مختلف مشاربهم. فإن نظر العابر إلى بيوتنا من أسفل الوادي راقه منظرها البديع، لأنه يطالع مشاهد تغري بإطالة النظر فتذكّر بحسن صنع الباري الذي أتقن صنع كل شيء. فيا سبحان الله الذي تبارك خلقه وتكوينه! فيك، جبلنا، جمال رائع يأسر الألباب، ويستدعي المتأمِّل ليستمتع بالعطاء الربّاني من دون مشاركة الإنسان، فما عشوائية المنازل المبنيّة في المنطقة يمينًا ويسارًا من دون تنسيق أو ترتيب إلا

دليل على بقاء جيرانك على فطرهم. فالمساحات التي سمحت لهم باستصلاحها لم تغيّر هم. فهم على عهدك. استخدموها لغرس أشجارهم ، وزراعة محاصيلهم ليعيشوا بريعها كغيرهم من الفلاحين في المنطقة؛ لذلك يشهدون لك بالجود به عليهم بعد الله العزيز الذي حباهم بماء نهرك الولهان بحبّ الغوطة. فلو قدّر للمرء أن يلحظ مشهد قريتنا وما يحيط بها لاستقرأ بساطتنا. أتظن أننا سندير لك ظهر المِجَنّ؟ لا ، وألف لا ، لن ننكر جودك وكرمك. فمن ينظر إلى بيوتنا على سفحك يجدها مستوحاة من بيئتك. فبيوتنا تبدو متناثرة في غير مكان ، مسترخية ، آمنة لا يعكّر صفاءها إلا من يسلك أزقّتها الضيقة في ذهابه وإيابه ، وعبث الأطفال الذين يتسلقون الجدران التي غار جزء منها في بطنك. فكلما صعد العابر للأعلى أصبح سطح البيت الذي دونه سهل الولوج ؛ لهذا يتفادى أهل تلك المنازل عبث الأطفال بإقامة سور للسطح وفق طريقة فنية عجيبة تصعّب على الطفل ارتقاءه حتى يتجنّبوا عبثه بما ينشرونه

على أسطحهم من مؤونة للشتاء. ما أكثر ما ينشرون! إن نظر العابر إلى أحد السطوح كشف ما عليها من أشكال وألوان وأنواع، فكأنها تودُّ أن تجمع ألوان الطيف. ففيها البندورة بأشكالها المختلفة، والمشمش وعصيره والعنب غير الناضج (الحصرم) والناضج (الزبيب)، والباذنجان والكوسا والفاصولياء (المقددة) والثوم، حتى اللحم يخزنه أهل القرية تحت اسم (القاورمة)، فضلاً على مؤونات أخرى يتعذَّر ذكرها. تبقى كلها في أماكنها أيامًا ليل نهار آمنة لا تمتد إليها يد على الرغم من سهولة الوصول إليها. فمسمى لص قلما يُتداول في بيئتهم، فإن وقع فهو نادر، قد يكون في مكان قصي من القرية، فاعله ممن يأتون إليها بماشيتهم طلبًا للكلأ كونهم لا يجدونها في بيئتهم.

عاش أهل القرية آمنين بفضل من ربهم ثم تمسكهم بعهدهم مع حاضنهم الذي يعيش أحيانًا مع خواطره الممزوجة برغبتين متناقضتين؛ أيقضي على جيرانه بسيول تغمر منازلهم، أم يبقي على احتضانهم؟ إنهم سبب مجيء

الرواد إليه سواحًا أو زائرين طلبا للمتعة في ربوعه وهو الراغب في إشعار من يأتيه بأنه نابض بالحياة. فمن حماهم من السكان هم سفراؤه يستقبلون رواده مرحبين ومؤهلين بهم مع إشراقة أم الكون التي تحداها من قبل فتركت له جزءاً من ثلجه ما أكسبه تميّزًا من دون الجبال. لكن خواطر أخرى كانت تنتابه بأن يتوهم بعض الناس أنه ضعيف أمام جيرانه، وهو من صمد أمام عوامل طبيعية تهاجمه ليل نهار، فتسوّل لهم أنفسهم أن يمدوا أيديهم متجرئين على حياضه مستقبلاً ، كما فعل سكانه السابقون الذين نبشوا قلبه ودخلوا إلى جوفه من دون أن يهابوا ابتلاعهم وهضمهم بل جعلوا قلبه مأمنًا يلوذون به من المخاطر التي يكون هو نفسه أحيانًا مصدرًا لها ؛ لذلك عاش جبل الشيخ صراعًا مريرًا ، فأي الرغبتين أحلاهما مرٌ ، إن ثأر ، معتدًا بنفسه ، لكرامته ، وتمطى قليلاً أو تململ فسيسحق هذا الغازي ، بأقل من طرفة عين، الغريب المصمم على التسلق إلى سنامه إن استطاع رغم انحداره الشديد ليبرهن تفوقه على من

ينافسهم من بني جلدته ، وليجعل الجبل العظيم مسرحًا لألعابه ونزواته مرة ، و محطة لكسب عيشه مرة أخرى غير آبه بكل ما سبق. أين توقيره للجبل وتعظيمه لمكانته ولصموده أمام الأنواء ؟ لقد تناسى هذا المخلوق العجيب ماضي مضيفه في منازلة شمس حارقة حاولت أن تسلّط لظاها عليه ومع ذلك قاومها ، واستمر جزء من ثلجه ناصعًا مغريًا الرواد ، فلو سلطت هذه الأشعة على غيره لصهرته ولما أبقت له أثرًا. كم حدّثته نفسه أن يلحق الأذى بمن أجج غضبه مرة بعد أخرى ، أيصدر أمرًا إلى شراايينه لتنتفض مرتعشة مزلزلة ما على ظهره ، وما في جوفه من غريب متطفل، ليغدو أثرًا بعد عين.

استرق هنيهةَ وقتٍ ليخرج من تلك الخواطر ، فأماط لثامها وحدّق في سفحه فلمح أثر هذا المخلوق العجيب فراقه المشهد النابض بالحياة من بنيان يشاد ، وأناس يتحركون ، وأرض خضراء نباتاها تتمايل خيلاء مع هبات الريح الخفيفة. فكل ما في البقعة جميل يستهوي الناظرين

الذين يشدون إليه الرحال. ونظر إلى بقعة أخرى لم يصلها هذا العجيب فوجدها قفراء جرداء منفرة لا تغري.

راجع خواطره، فقال: هذه الحياة التي يعيشها سفحي بوجود هذا العجيب لم تكن من قبل، فلو أنني نفذت تهديدي لفقدتها. لا، لا لن أكون ناكث عهد مع هذا العجيب الذي منحتُه أماني وسمحت له أن يقيم قريبًا مني آمنًا في سربه محتميًا بحماي؛ أودعوني كل غال ونفيس؛ أولادهم نساءهم، أموالهم، بل أسرارهم الغريبة العجيبة. كم شخصٍ لجأ إلي وبسط شكاته! كم من شخص هرب من أعدائه لاجئًا يطلب استجارتي وحمايتي!كم شخص قاتل لاذ بكنفي متواريًا خوفًا من ثأر الموتور إنهم كثير.

لن أخيّب ظنهم وثقتهم بي، ولن أفضح سرهم. كم مرة دبروا مكرًا كُبّارًا، ينطق بدهاء تزول منه الجبال... إن حلمي وأناتي وسعة صدري وثقة الآخرين بي جعلني أهلا على جمع تناقضاتهم حتى النخاع، فلو عرف إنسان كنهها لأفرط ضحكًا وتعجبًا من تصرُّفي تجاه هؤلاء، ولنظر إليّ

بإجلال وإكبار، وجعلني قبلته الثانية بعد مكة المكرمة. فهو لن يبخل عليّ بزياراته الشهرية موطدًا علاقته وثقته بي ما يدفعه إلى مناجاتي بأسراره التي ضاق بها صدره وعزّ عليه أن يبوح بها لأحد. قد يكون سفير دعاية لي فيأتي بآخرين فأزيد حيوية ونشاطًا، فبعد تلمُّسي معنى الحياة أحببتُها وأحببتُ أن أمنحها لمن حولي ليكون نابضًا بها على الرغم من تناقضاهم. فكأن سُمِّي لي في مكان آخر صرح عني بقوله:

أَصَخْتُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ

فحدَّثني ليلُ السّرى بالعجائبِ

ألا كم كنتُ ملجأ قاتلٍ

وموطنَ أوّاهِ - تبتّلَ- تائبِ

كم يعاني الإنسان من متناقضات مخبوءة في داخلة أو ملموسة في تصرفاته، فيأتيك ليبسط لك شكاته فتصغي إليه وهو يعبِّر لك عن سداد رأيه ونزاهة نفسه، لكنه بعد فترة

ليست ببعيدة يغيِّر رأيه ويظهر ما يناقض ما أبداه. فما كان قد حقّره، واستخفّ به، يثمنه ويعلي من شأنه متناسيًا ما قال. ما أعجبك أيها الإنسان! تعيش في كتلة من المتناقضات تعلي إلى أعلى عليين، وتخسف إلى الدرك الأسفل. يا سبحان الله كم أنت عجيب غريب حقًا؟ فأزعم أن لك نصيبًا من اسمك، فلو نظرنا إلى جذر كلمة إنسان لوجدناها من نسي، فلربما هذا سر تغيّر حكمه حول الحدث نفسه بين وقت وآخر. هل وصل هذا السر إلى مضيفه حتى كاد يسلبه حكمته ورزانته؟ إنّ تراجعه عما عزم عليه في آخر لحظة، وكبحه للجانب الشرير فيه، وإعلاءه شأن الخير، مدعاة للتأسي به.

فهلّا نتأسّى به. إننا -بني البشر- كتلة من المشاعر التي تختلف مشاربها، فلو غلّبنا الجانب الخيّر لما وقعنا في معترك لا نكاد نتجاوزه حتى يستجرنا إلى ما هو أخطر يطيش معه عقلنا ويخبو بريق تفكيرنا، ونخضع وقتئذ لهوانا مغلبين مصلحتنا على مصالح الآخرين الذين يعيشون في المقلب

الآخر، ويفكرون كما نفكر بروح المتمترس برأيه غير مهتم بما سيكون، فلا تهمّه إلا نفسه، وتتفاقم الخلافات وتتعالى الأصوات ويكشف ستر كل مخبوء، عندها لا مناص من المواجهة، ويا ليتها آنية، بل تستمر فتزهق الأرواح وتسيل الدماء ويقتل الأبرياء ويشرد الباقون كل ما سعى إليه كلا الفريقين هو إثبات للوجود ليس إلا، فلا يصحو أحدهم إلا بعد أن ضربت الفأس رأسه ولم يعد ينفع الندم.

في الجانب النقيض يغلب العاقل الحكمة والأناة والصبر ويشعر بحقوق الآخرين وبه يتجنب ويجنب الطرف الثاني كل الآلام التي وقع فيها الأنانيون، فالجبل غلّب الحكمة والأنانة والتمسّك بالعهد، ولم يطلق العنان لشرايينه أن تنتفض بل غلّب الجانب الخيّر ورأى الجزء المملوء من الكأس، ففي صنيعهم أضافوا جمالاً آخر لما حباه الله به من جمال أعظمه تفرّده ببقاء كومة الثلوج صيفًا وشتاء تغطي سنامه مستأنسة حول قمته بشكل دائري غير آبهة بشيء

حتى الشمس زعيمة مجموعتها التي استسلم لها جميع من في الكون.

هذه الكتلة القديمة الحديثة المتجددة بقيت مكانها واثقة من نفسها متطلعة إلى عطاءات ربها القادمة التي ستوسع مساحتها بردائها الأبيض الناصع الشريك في التحدي لأم الدنيا المتخلية عن حنان الأمومة ، فضاعفت إرساليات أشعتها الحارقة في شهري تموز وآب (يوليو وأغسطس) إلى قمة الجبل التي صمدت أمامها بتحدٍّ واضح ، متمسكة بعطاءات ربها ، فلم تتمكن الشمس من إذابة ثلجها كله ، ولا القمة استطاعت المحافظة عليه كاملاً ، فسال ماؤه عبر جداول صغيرة. ولّما لم تتمكن الشمس من هزيمة الجبل بتجريده خيرات ربه تبسم ضاحكًا فنتج عن ابتسامته شقٌّ ضرب قاعه ، فأُعجب الجبل بفعله لّما رأى في قاعه واديًا يتشكّل من نزف دموعه المتلألئة! من فرح أصابه أو حزن ألَّم به في عراك قمّته مع أمّ الدنيا ، ليشاطر من لجؤوا إليه في تناقضاهم. لم تتخلّ الشمس عن سطوها تجاهه لتعيده إلى

بيت الطاعة ما سبّب نزفه المتواصل مع كل محاولة، لكنه صمد في وجهها يومًا بعد آخر حتى خفّفت من وطأتها عليه فانتشى فرحًا وذرف دموعًا أخرى فرحًا بصموده ورباطة جأشه فامتزج الدمعان معًا، وسالا مياهًا غزيرة عبر الوادي.

ولما انكفأت الشمس في حربها معه تنفس عميقًا وبدأ يناجي نفسه: أين حجمي من حجمك يا زعيمة الدنيا؟ ما أنا إلا ذرة تراب بسيطة على ظهر كوكب من كواكبك، لكن ثقتي بالله الذي نصبني في كوكبك، وأوجدك إياك، لن يتخلّى عني ما دامت العزيمة لديّ موجودة فصبّرني وقوى عزيمتي لأثبت لكل ذي جنان بأنني موجود، وسأثبت للجميع بالدليل القاطع صحة رأيي. بالرغم من الألم جمّعت دموعي النازفة بنوعيها، وأرسلتها عبر الوادي شاهدة على حبي للحياة فأسهمت في إبراز جمال لا يضاهيه جمال آخر. انظري لمائي المتدفق الذي شكل نهرًا يعد معلمًا من معالمي بعد أن امتطى قاعي فاحتضنته ضفتان فشكّل معهما عينًا لها

رمشان. أيوجد أجمل من هذه اللوحة فلنردّد : (فتبارك الله أحسن الخالقين).

هذه دموعي لم تذهب هباء بل جمّعتها من قمتي التي أحرقتها الشمس لتصل إلى كبدي ، فتجلّدت ، لكن شدة الألم أذرفتنيها بعدما بالغت في إرسال أتونها وحممها الواحدة تلو الأخرى حتى تعذّر علي كبح الدموع ، فراحت تنهمر غزيرة فغطت أجزائي التي ضاقت عنها فسالت إلى قاعي وشكلت مسيلا سار وفق الممكن ما استهوى منظره في نهري بني الإنسان الباحث عن الجمال فجاءني طالبًا السكنى والملجأ فعثر على ضالته في كنفي واستحدث بعزمه وجدّه بيوتًا تؤويه وتقيه أشعة الشمس.

ولما رأيته صاحب عزيمة وإصرار قلصت امتدادي يمينا وشمالا لأمنحه المزيد من الأرض الخصبة ليزرعها ، كما زوّدته بالماء العذب الزلال ليشربه فضغطت على نفسي أكثر حتى ضاعفت الماء طلبًا للخير العميم ، فغدت جنباتي بقعة أشبه بالجنان ، ما دفع الكثيرين من الناس إلى زيارتها

طلبًا للاستجمام ، وليمتعوا مآقيهم بها ، وليتذوقوا طعم ثماري، ويرشفوا مائي البارد ، فالإنسان مهما أوتي من جلد لن يستطيع البقاء في جوف النهر وقتًا طويلاً في أشد أيام الصيف حرًّا. فلو ترك زائري بطيخة خضراء عشرات الدقائق في نهري لانشقت إلى نصفين ، فكأنها تتماهى مع ابتسامتي الأولى.

هذا صيفًا ، فكيف بمن يدخل حياضي شتاء؟ !! جيراني من بني البشر شقّوا في سفحي طريقًا ضيقًا حتى يصلوا إلى سهولهم – التي أخشى أن يزحف بنياهم إليها بعد أن ضاق السفح عن استيعاب تكاثرهم – التي جملت بمزروعاتها لتكمّل الصورة مع ابتسامتي الأولى. أنا من يتحكم بالمكان، فأحيانًا لا تبعد ضفتي نهري عن سفحي أمتارًا ، ما انعكس أثره في نهري ، فكثرت تعرجاته وانعطافاته حتى سمي ب (الأعوج) فهو يسير كحيّة تتلوى مطمئنة لمصيرها ، ولما رغب نهري في فسحة أوسع – هيهات هيهات – فقد سبقه من ملك جوار ضفتي النهر ، فنهش ما بعدهما من سفح

الجبل ولما تعذّر عليه نهشه صخوري لجأ إلى إقامة (الجلول المدرجات غير مكتفٍ بما بناه من منازل في بطن من احتضنه فغرس فيها وعليها أشجارًا مختلفة الأنواع. من يقف أمامها يتذكر إبداع الخالق فيشكره. هذا العطاء جنّب جيراني الحاجة. فعملوا بكل ما أوتوا من قوة ليظهر المنظر بأبهى حلة تستهوي الرواد القادمين للاستجمام.

# الفصل السادس

في خضم هذه الحياة الممزوجة باليُسر والعُسر والخوف من غضب الطبيعة أو فتك الجبل؛ سار عبدالله في رحلة الحياة، فهو يتابع ذهابه إلى الكتّاب ليتعلم على يدي الشيخ مبادئ القراءة والحساب، فكان الشيخ يعامله بمنتهى الطيبة، فالرجل مألوف لعبدالله؛ لأنه يتردد على مضافة والده. فجهد الصبي وذكاؤه ومعاملة الشيخ وألفته الحسنة أسهم في تفوّق الطفل وجعله متميزًا بين أقرانه، فغدا ممن يعتمد الشيخ عليه، فإذا غادر حلقة المسجد لأمر ما أوكل له إدارة الحلقة وضبطها.

وبتعاقب الأيام والطفل في الكتّاب ظهرت عليه آثار التعليم واضحة، ما أسعد أهله أيّما سعادة وبخاصة إذا مدحه الشيخ في المضافة أمام روادها حتى وصل الحد بالإمام

أن يقلد لثغة عبدالله بحرف الراء. يقال ما له بداية له نهاية، فأيام العام الأول من كتّاب عبدالله انتهت فكأنما الشاعر عناها:

ألم ترَ أن الأيام أسرع ذاهب

وأن غدًا للناظرين قريب

لم يعد عبدالله يذهب إلى حلقة الكتّاب مع بدء الصيف، والذي حمل في ثناياه مفاجآت لم تكن بالحسبان، فهو بعُرف أهل القرية موئلٌ لجمع جهد عام سابق. يعمل الفلاحون في أراضيهم منتظرين قدومه ليفرحوا بريع ما زرعوه، وليقضوا بريعه مطالبهم المعاشية؛ لذلك انهمك أهل القرية خلاله بجني محاصيلهم كأنهم خلايا نحل مستغلين كل لحظة قبل أن يباغتهم مطر الخريف فيفسد ما تبقى من محاصيل في الأرض أو على البيادر، فتراهم متعاونين كأسرة واحدة، فإن أنهى أحدهم عمله ساعده جاره. روح التعاون رضعوها أطفالاً، فهم يتسارعون إلى من تأخر في جني محصوله ليكونوا سواء في المرحلة القادمة كبيع المحاصيل والإعداد للموسم الجديد.

لكن حدثًا جديدًا أعلنه شيخ المسجد مغايرًا للأعوام السابقة أن أعلن عن حلقة متقدمة لمن اجتاز الحلقة الأولى. بدأ عبدالله ينتظر افتتاح الحلقة الجديدة بفارغ الصبر بعدما شعر بالتقدير من أبناء المجتمع، وبخاصة ممن يرتادون مضافة أبيه، وبكمّ السعادة التي يلمحها في عينَي أبيه لدى قراءته لكتب المنطقة. هذا التحصيل العلمي البسيط منحه ثقة بالنفس وأشعره بضرورة المتابعة حتى يتمكّن من مساعدة والده على قراءة الكتب والرد عليها، وليحقق طموحه في أن يكون له دور حقيقي في المضافة، فضلاً على التنوير الذي منحه له قراءة رموز الحروف، فكلما وقعت عينه على قصاصة ورق مكتوب عليها هجاها وقرأها. كم يكون سعيدًا عندما يطلب إليه رواد المضافة أن يقرأ لهم وريقات يجدونها تحت غلاف حبات الحلوى مستأنسين من عباراتها التي تميل إلى التفاؤل، فهم يستبشرون بمحتوى العبارات ولاسيما التي ترفع من شأن آكلها -أسلوب تسويقي قديم- فإذا ناداه أحدهم هرول إليه سعيدًا، فيأخذ الوريقة ويشرع

يهجئ كلماتها ، فيضحك الرجل لدى سماعه الإطراء فيها ، ويقول لجاره : حظي أحسن من حظك. قد تقع بينهما منافسة فتح حبات الحلوى لمعرفة ما فيها من عبارات يكون عبدالله الحكم إذ يقرأ العبارة المكتوبة. فيتبادل الرجلان طبع خديه بقبلاتهما اعترافًا بالجميل. فشعور مَن حوله بالرضا عنه أسهم في تأجج شوقه لافتتاح الحلقة المستحدثة ليزيد من قدراته على القراءة والكتابة. فالشيخ شجع على استحداث الحلقة ليجاري الكتاتيب الكبرى. وتهيئ لمستوى أعلى في التحصيل العلمي والمعرفي لدى الأطفال ، كما تثبّت ما تعلموه. فكم من طفل مسح مرور الزمن من أذهانهم ما أخذوه في الحلقة الأولى ؛ لأنه انقطع عن متابعة التعلم وبذلك بدأ ينسى ما تدرَّب عليه فعاد شبه أُمّي.

وليكسب الإمام التأييد من رجالات القرية طرح فكرته في مضافة الشيخ مبينًا إيجابياتها ومذكِّرًا بحض الدين على العلم.

حاول الشيخان -المختار والإمام- ترغيب الآباء في إرسال أبنائهم لها، وبالفعل انتصرت الفكرة، وسجّل فيها أكثر من عشرة أطفال منهم عبدالله.

إن عودة عبدالله هذا العام إلى الكُتّاب ستكون مختلفة، فأبوه لن يرافقه، وقد يصطحب دراجته، كما أن ثقته بنفسه ورغبته في المزيد من التعلم، وحُب الإمام له، وتفوقه في الحلقة السابقة؛ عزَّز أمله بحصد الترتيب الأول. فكل مقومات النجاح متوافرة لديه، يغلفها مشاعر الرضا بما هو فيه، وبخاصة إذا أوكل إليه الإمام مهمة مساعدته في متابعة المبتدئين كمشاهدة إجاباتهم عن أسئلة الشيخ التي تعزّز المستهدف.

بدأ اليوم الأول في الكُتَّاب بتجمع الأطفال في ساحة المسجد موزعي المشاعر بين رغبة ورهبة منتظرين نداء الشيخ ليبدأ عامهم الجديد. وبمجرد أن ناداهم الشيخ أسرعوا إليه واصطفوا في صفين ليستمعوا إلى تعليماته واجبة التطبيق، وإلا تعرض المخالف للعقاب.

شرع الشيخ بإدخال حلقة المبتدئين، وخصَّص لها إحدى زوايا المسجد، كما سمح لأطفال الحلقة الثانية بالعودة إلى مكانهم الأول.

استقر الأطفال في أماكنهم كأنّ الطير على رؤوسهم منتظرين سماع المزيد من تعليمات الشيخ في اليوم الأول فقال : أولاد ، عليكم تنفيذ ما أقول : – عدم التأخر صباحًا. – الهدوء في الحلقة. – كتابة الواجب – حفظ الآيات المطلوبة. – عدم العبث بأثاث المسجد. – لا يسمح لك أن تجيب عن سؤال من دون إذن... واتجه إلى الحلقة المتقدمة قائلاً : – عليكم مراجعة حفظ سورة النجم ، ونسخ تفسير الآيات العشر الأولى الآن ، ثم عاد إلى حلقة المبتدئين مكرّسا وقته لهم من أجل تبصيرهم بمسك القلم والتعامل مع الخط.

أنهى عبدالله مراجعة حفظ السورة ونسخ تفسير الآيات، ثم ذهب إلى شيخه ليريه عمله ، آملاً بأن يكلفه متابعة أعمال زملائه ، لكنّ الشيخ نظر إليه ، وقال : أحسنت ، عد

إلى مكانك. أصيب عبدالله بخيبة أمل، فعاد أدراجه حزينًا، ولزم مكانه حيث انتابه الإحباط من ردة فعل الشيخ. ولما وصل البيت أبلغ والده بما حصل. حاول الأب تبديد مخاوفه وقال له: ولدي، أنتم ما زلتم في يومكم الأول والشيخ يعطي نفسه فرصة ليتأكد من اتقانك للمعلومات السابقة، فإن اكتشف تعثرًا ما فسيعالجه، فلا تتسرع، بل تأكد إن أثبتَّ جدارتك ثانية فلن يتوانى عن تكليفك، وربما يكل إليك متابعة الحلقة الأولى كما جرى في العام الماضي.

حديث الأب زرع في عبدالله الأمل وأرجع له جزءًا من الثقة التي كاد يفقدها وقال لأبيه:شكرًا لك أبي لقد نوّرتني، وسأُظهر لشيخي تفوقي، وسأحاول حفظ بعض سور القرآن غير مكتفٍ بما يطلب الشيخ حفظه.

سعد الأب بهذا الوعد الجديد ودعا الله أن يوفقه.

مضى غير أسبوع على افتتاح الكتّاب، اطمأن خلالها الشيخ على امتلاك عبدالله للمهارات، كما تمكّن من تزويد الحلقة الأولى بالأساسيات في التعلم كمسك القلم والتعامل

معه في أثناء الكتابة لدى رسم الحرف على السطر. هذا الإنجاز جعله مطمئنًا إلى أن يوكل بعض المهام في حلقة المبتدئين لعبدالله ، فاستغل خروج الأطفال إلى الفسحة وطلب من عبدالله البقاء في المسجد.

اقترب عبدالله من شيخه الذي همس بصوت خفيض : ولدي عبدالله، جاء دورك الآن فقد ساعدتني العام الماضي، ونلت ثقتي، لذلك سأوكل إليك بعض مهام حلقة المبتدئين، فماذا تقول؟

- شكرًا شيخي الحبيب، اطمئن سأعمل جاهدًا على أن أكون أهلا لثقتك؟

- إذن أصغِ جيدًا بني ، سأحدد لك مهامك التي ستفعلها بدءًا من غد.

سردها الشيخ على مسامعه طالبًا الالتزام بها حرفيًا.

في الأيام التالية نهج الشيخ طريقة جديدة ، فكان يبدأ عمله في تدريب حلقة عبدالله على مهارة لغوية أو آيات

جديدة ، فإذا أنهى تدريب الأطفال كلفهم حلّ بعض التدريبات حتى تتعزز المهارة لديهم. ثم ينتقل إلى تدريب منتسبي الحلقة الأولى ، فيدربهم على حرف جديد ، وبمجرد أن ينهي عبدالله حل تدريباته يطلع الشيخ عليها فإن اطمأن الشيخ على صحة الإجابات أوكل إليه مهمة تسميع الحفظ المطلوب من منتسبي الحلقة الأولى ليفرغ هو إلى حلقة المتقدمين مصوبًا إجاباتهم. فإذا أنهى عبدالله تسميع الآيات للأطفال تركهم ليكتبوا الحرف الجديد وكلماته ، متابعًا ومصوبًا ومرشدًا ، حتى ينهي الشيخ مهمته ، ليعود إلى حلقة المبتدئين. بينما يرجع عبدالله إلى حلقته.

سُرَّ عبدالله بدوره الجديد ، فصار شغوفًا بانتهاء الدوام لينقل لأبيه أحداث يومه.

في اليوم التالي بدأ الشيخ بحلقة عبدالله ، فدربها على مهارات متقدمة، ثم ضرب لهم أمثلة وأكّدها بنظائر منهم ثم كلفهم التطبيق ، ليذهب إلى حلقة المبتدئين. وبمجرد أن أنهى عبدالله تكليفه عرضه على الشيخ وبدأ تطبيق ما اتفقا عليه.

استمر العمل باتفاقهما إلى أن انتهت فترة الدراسة في الكُتَّاب، أظهر عبدالله خلالها تفوقًا ملحوظًا، وحسن إدارة، وتميّزًا مكّنه من حفظ خمسة أجزاء من القرآن الكريم عن ظهر قلب، كما عزز المهارات التي دُرّب عليها في حلقة المبتدئين بممارستها عمليًا محققًا لأبيه طموحه في أن يقرأ كتب المنطقة، ويرد عليها، فحصل بحق على لقب مساعد الشيخ، لذا قرر أبوه أن يحتفي بتخرجه على مستوى المنطقة لتفوقه لما أبداه من قدرة في رده على الكتب. فضرب الشيخ موعدًا للاحتفاء، وأبلغ مشايخ القرى الأخرى به، كما دعا إليه قائم مقام قطنا وبعضًا من خاصته من خارج المنطقة.

علم عم عبدالله فارس القرية وأمهر صياديها ورماتها بما يخطط له أخوه، ففكر أن يقدم في الحفل مشهدًا يفاجئ به الجمهور تعبيرًا عن حبه للمحتفى به الذي يبادله الشعور نفسه، فالطفل تعلّق بعمه كثيرًا؛ لأنه يصطحبه إلى البراري للصيد، ويعلمه هناك امتطاء الخيل، والرماية على الرغم

من صغر سنه. كان عبدالله ينتظر دعوة عمه له بفارغ الصبر حتى يتابع تدريبه ليكون فارس القرية المستقبلي.

اجتمع الشيخ بخاصته لاستشارهم وأخذ آرائهم حول فقرات الحفل، ثم توزعوها، كما اتفقوا أن يلتقوا بعد صلاة العشاء يوميًا لاستعراض ما أنجزوه ليكون العمل النهائي منسقًا متكاملاً ، واختاروا اسمًا للحفل يجذب أبناء القرية ويدفعهم إلى المشاركة ، فأطلقوا عليه اسم (احتفاؤنا بالخريجين واجب) ، هذه التسمية شجعت أهل القرية على المساهمة ، فحرص الجميع على إنجاحه ليكون متميّزًا على مستوى المنطقة.

لم يكن دور عبدالله غائبا بل أسهم إسهامًا كبيرًا في تفعيله ليكون متطابقًا مع تسميته. فبعد توزيع المهام من قبل المختار على مشاركيه في الإعداد توجه عبدالله إلى شيخ المسجد وأبلغه رسالة أبيه ، واستسمحه أن يدعو أطفال الحلقتين عن طريق آبائهم في المسجد لحضور الحفل، ووعد

الشيخ بأنه خصص للمتفوقين هدايا رمزية سيقدمها لهم سماحته خلال فقرات الحفل.

سُرَّ الشيخ من هذه اللفتة الجميلة ، ووعده بحضوره ، معتبرًا دعوة عبدالله مقدَّمة على دعوة أبيه.

سار الإعداد على قدم وساق ، ووجهت الدعوات لأصحابها ، وغدا الجميع منتظرًا اليوم المحدد الذي وصل أخيرًا. اجتمع فيه خلق كثير ليشهدوا هذا التجمع الفريد من نوعه في قريتهم.

بدأت فقرات الحفل بتلاوة آيات من القرآن الكريم تلاها أحد الفائقين من الحلقة الثانية ، ثم أعلن راعي الحفل بدء الفقرات ، فقدم عريف الحفل فارس القرية عم عبدالله الذي بدأ بالبسملة والثناء على الله ثم شكر راعي الحفل لتفضله برعايته ، وتوجه إلى الحضور شاكرًا لهم تلبيتهم الدعوة ، و تمنى للمحتفى بهم التوفيق في حياتهم ، ثم تحدث باختصار عن تاريخ الفروسية لدى العرب وأهميتها منذ القدم ، فهي مدعاة عز وفخر ، وصمت هنيهة ليفجّر مفاجأة

لاقت استحسانًا لا نظير له، وألهبت حماسة الجمهور إلى حد ملفت بتصفيق ممتد وحاد لفرسان المشهد الحاضر الغائب.

فالشاب الفارس لدى إعداده لفقرته وجه دعوة إلى أصدقائه الفرسان للمشاركة في الحفل على أن يصطحب كل واحد فرسه ، وأن تبقى الدعوة سِرًّا حتى يفاجئ الفرسان الجمهور عندما ينهي الفارس قول : وفي الختام السلام عليكم ورحمة الله ، يخترق الفرسان الجموع نحو راعي الاحتفال. هذا المشهد أجّج المشاعر، وشجع الجمهور على البقاء ليشهد عادة أحبوها كثيرًا كادت تنسى.

اتخذ المتسابقون طريق القرية باتجاه دمشق ميدانًا ، حيث اصطفّوا أمام الشرفة منتظرين الإذن من راعي الحفل ببدء السباق، معتبرين الشرفة نقطة البداية، وعين الماء الواقعة في منتصف الطريق بين بيت جن ومزرعتها نهاية الشوط الأول، فمن يصل إليها أولاً ثم يعد إلى نقطة البدء أولاً يتصدر الفرسان. ولإنجاح التباري أوكل صاحب الفكرة إلى ثلاثة شبان مهمة التأكد من وصول المتسابقين إلى نقطة

النهاية ، فهناك يتسلم من الشبان علامة مكتوبًا عليها رقم الوصول.

كانت الشرفة تحتضن كبار المحتفين من راعي الحفل ، ومخاتير المنطقة ، وإمام المسجد ، والهيئات الاختيارية من القرى الأخرى ، وزعامات العائلات ، إضافة إلى عبدالله والفائقين الثلاثة الأول من كل حلقة ، أما بقية المحتفى بهم فكانوا في مقدمة الجمهور مقابل الشرفة.

هيمن على المشهد سكون غريب ، فالعيون تطالع الشرفة منتظرة إعلان راعي الحفل بدء السباق ، لكنه قبل الإذن تحمس ووعد أمام الملأ أن يقدم هدية للفائز الأول باسم المنطقة، ثم سمح ببدء السباق لينطلق المتبارون واضعين حدًا للسكون وملهبين المشاعر الجياشة. فتعالت الأصوات المشجعة من الحضور والذي سرعان ما حبس أنفاسه منتظرًا قدوم الفارس الأول.كانت المشاعر متضاربة الهوى ، فكلٌّ مجموعة تعاطفت مع ابن بلدها.

لم يدم الانتظار طويلاً حتى رأى الناس من بعيد إقبال فارس القرية وصيادها متقدمًا ، ثم يليه غير بعيد منه أحد الفرسان، ما أجّج مشاعر الجمهور أكثر ، فتعالت الأصوات مشجعة فارسها ، وما هي إلا لحظات حتى خفّت اندفاعة فرس عم عبدالله ، ليتقدم الفارس الثاني عليه ويتمكن من الوصول أولاً إلى نهاية المطاف ، ليأتي فارس القرية ثانيًا مخيبًا آمال جمهوره المتعطش إلى فوزه ، لكن الفارس ضحى وخيب أمل جمهوره من منطلق أن المضيف للفرسان لا يصح أن يكون الأول...

وصل الفرسان الآخرون فقابلهم الجمهور بالتصفيق... تقدم الفارس الأول إلى الشرفة ليتسلم جائزته من راعي الحفل ، ثم استؤنفت مراسم تسليم الهدايا بأن توجّه عريف الحفل إلى قائمقام قطنا بأن يتكرم ويسلّم الهدايا لبقية الفرسان الضيوف ، والتي أعدها فارس القرية تكريمًا لهم ، من بعد توجه عريف الحفل إلى مخاتير القرى الضيوف

واحدًا بعد الآخر بأن يتفضلوا بتسليم الهدايا للأطفال الذين حصدوا مراتب متقدمة في الحلقتين.

هذا المشهد أشعل حماسة الحضور، وشجع بعضهم على التصرف بسرعة ليجمعوا بعض النقود، ثم صعد أحدهم إلى الشرفة مستسمحًا راعي الحفل وعريفه ليقول بضع كلمات أثنى من خلالها على راعي الحفل، وشكر للمختار وأهله حسن صنيعهم، فباسمه وباسم أبناء القرية الآخرين يتقدم بمبلغ من المال للمحتفى به الفائق الأول الفتى الذي سنَّ أبوه سُنة حسنة وجعل قريتهم متألقة بين القرى المجاورة.

أخيرًا قدم عريف الحفل عبدالله الفائق ليقول كلمات باسم المحتفى بهم. فقابله الجمهور بتصفيق حاد ممتد. فاستأذن الفتى راعي الحفل، وشكر له رعايته حفلهم باسم المحتفى بهم، كما توجه للحضور شاكرًا صنيعهم وعلى رأسهم أمام المسجد الشمعة التي تحترق لتضيء للآخرين، وللآباء الذين ضحوا وأرسلوا أبناءهم إلى الكتاب للتعلم، وهم بحاجتهم كما تمنى أن يستمر هذا التوجه ليكون حافزا

للعلم، ولم ينس من الشكر كل من أسهم في إنجاح الحفل ولاسيما عمّه، صاحب المفاجآت التي رسمت البسمة على الثغور، ووعد بأن يكون خادمًا للقرية ومصالح مواطنيها، وختم بالحمد لله. فكان حمد عبدالله إيذانًا بانتهاء الحفل.

تناقل الحضور لوقائع الحفل جعله يعمُّ المنطقة، وحفَّز الأطفال على التفوق، كما ذاع صيت عبدالله في المنطقة وغدا مثلاً يتأسى به الفائقون في الكتاتيب القريبة.

استمر عبدالله على ملازمة أبيه في المضافة، يقرأ له الكتب، ويرد عليها، وأخوه الأكبر يعمل في حقل أبيه مزارعًا يرعى الأبقار ويعتني بالمزروعات. فإن اصطحب عبدالله يومًا ليساعده؛ اختلفا، فعبدالله لا يحب العمل الزراعي ولا يعطيه الاهتمام المطلوب فيأتي ما ينجزه من عمل غير متقن، فيضطر فيصل إلى عمله من جديد.

هذا الحدث تكرر غير مرة على الرغم من تدريبه لعبدالله، ماجعل صبر فيصل ينفد، ولما طفح الكيل شكاه إلى أبيه، طالبًا منه أن يعفيه من العمل في الأرض حتى لا

يضيع وقتهما سدى. هذه الشكوى زادت الشرخ بين عبدالله والعمل الزراعي، وحببت إليه أكثر أن يصاحب عمه إلى البراري للصيد والفروسية. فكلما دعاه عمه لمصاحبته للصيد والفروسية؛ استجاب لدعوته، حتى تعلق بهواية ركوب الخيل والرماية، فعاش موزعًا بين المضافة والبراري.

ذات يوم جاءت كتيبة عسكرية إلى منطقتهم، واتخذت من حقول القرية مكانًا لتمركزها خلال فترة انتشارها. تردُد فيصل على الحقل القريب من انتشار الكتيبة عرَّفه على قائدها الذي ينتمي لجبل العرب (السويداء) فبين المختار وبعض أهلها قُربى؛ لذلك دعا فيصل قائد الكتيبة إلى مضافة أبيه، والذي استقبله استقبالاً حارًا وأولم على شرفه.

ولما تكرَّرت زيارة القائد للمختار نشأت صداقة بينهما. دفعت المختار أن يحمِّل الرجل شيئًا من خيرات حقله إلى أهله هدية عند ذهابه في إجازة فبادلوه هدايا من إنتاج

الجبل. فتوطدت العلاقة بينهما وتتوّجت بدعوة القائد للمختار وولديه إلى زيارته في بلدته. توالت فصول المودة بينهم وتعمقت الصداقة. لكن بقاء الحال من المحال، فقد حمل بريد القيادة أمرًا يقضي بأن تعود الكتائب المنتشرة إلى مقارها الرئيس خلال أسبوع. كان الخبر مؤلمًا على المختار وولديه والقائد، فحاول الأخير طمأنة الشيخ ووعده باستمرار التواصل، كما أكّد دعوته للشيخ وولديه لزيارته في بلدته. وافق الشيخ ووعده أن يقوم بها.

ولما انتهى موسم الصيف في القرية وفّى الشيخ بوعده فأخذ معه ولديه لزيارة بلدة القائد الذي سبقهم إليها مجرد إخباره بموعد الزيارة. جرى أكثر من لقاء بين عبدالله والقائد خلال الزيارة، ما فتّح عيني عبدالله على عمل مستقبلي يخلصه من عمل الأرض مستقبلاً لأنه لا يحبه، إضافة إلى كون أرضهم تتقلص مساحتها يومًا بعد آخر، فأبوه كل فترة يبيع جزءًا منها ليغطي مصاريف المضافة والأسرة، حتى غدا مردود الجزء المتبقي لا يغطي أبسط

احتياجات الأسرة. فالشيخ (المختار) لا يتقاضى مقابل خدماته للناس شيئًا ، فعمله تطوعي ويرتِّب عليه التزامات تجاه المجتمع بأن تبقى مضافته مفتوحة لأبناء القرية ، وللوافدين من دوائر الدولة ، حتى الغرباء الذين يمرون بها. هذه الالتزامات ، وقلة المردود ، إضافة لانعدام الرغبة في العمل الزراعي ؛ جعل عبدالله يفكر جديًّا بالانتساب للقوات المسلحة متطوعًا بدل أن يذهب إلى الخدمة الإلزامية التي فُرضت منذ فترة قريبة على الشباب الذين يصلون سن الثامنة عشرة ، والتي تتطلب بدورها مصاريف من الأهل ، فما يأخذه المجند من مرتب لا يسدد أبسط حاجاته. فمن أين سيأتي بالمصاريف لنفسه والحال تلك؟

حدّث القائد برغبته طالبًا إليه أن ينوّره عن العمل في القوات المسلحة كمتطوع ، ولما اقتنع بالتطوع في الجيش طلب إليه أن يقنع له والده.

في أول لقاء جمع القائد والمختار حدّثه عن رغبة عبدالله في التطوع بالجيش. رفض الشيخ أولاً ، لأنه لا يصبر على

فراقه، ولا يستغني عن مساعدته في المضافة. حاول القائد إقناعه بأن عبدالله سيذهب إلى الخدمة الإلزامية بعد فترة قريبة، وسيغيب عنه على الأقل فترة الدورة، وسيحمِّله عبئًا ماديًا، فما يتقاضاه في أثناء خدمته الإلزامية لا يكفي مصاريفه. كما أبدى القائد استعداده لمساعدة عبدالله عند الفرز ليكون في منطقة قريبة من قريتهم.

بين أخذ وردّ وافق المختار. شكر القائد له موافقته، وزف الخبر إلى عبدالله الذي كاد يطير فرحًا، فاندفع إليه يقبّله.

بدأ الشاب رحلة الانتظار، آملاً ألا يتأخر الإعلان عن تقديم الطلبات للالتحاق بدورات مدارس صف الضباط بفارغ الصبر.

في هذه الفترة كان عبدالله يملأ فراغه بالعمل في مضافة أبيه أو الخروج للصيد والفروسية في البراري القريبة. فذات مساء كان عائدًا من الصيد وإذ بفتاة من القرية تمسك زمام بقرة تسير خلفها، فلما وصلت الفتاة إلى ساقية الماء

اجتازت جزءًا منها ، لكن البقرة وراءها امتنعت عليها ، فشدت الفتاة زمامها فأبت البقرة أن تدخل الماء. حاولت الفتاة مرات من دون جدوى. لمح عبدالله المشهد المتكرر فأحب أن يساعد الفتاة. اقترب من الجدول ونحّى فرسه جانبًا ، وأقبل مسلمًا وقال : يبدو أن بقرتك عنيدة ، هاتِ الزمام أمسِكْ به. ورجع بها خلفًا ثم أقبل محاولاً تمرير البقرة لكنها تأبّت عليه. احمرّ وجهه خجلاً من الفتاة ، وخشي أن يتكرر رفضها ثانية. فكّر في حل يخلصه من ورطته التي جاءته من دون إنذار... تواردت عليه عدة حلول ، كأن يبحث عن مكان ضيق في الساقية يعبّر منه البقرة ، أو أن يستخدم معها العنف ، أو أن يأتي ببعض الأعشاب ويضعها في جانب الساقية المقابل. نحّى الحل الأخير جانبًا ، فالبقرة لا يغريها الطعام ، فهي آيبة من الرعي ، والوقت المتبقي من فسحة الضياء قليل ويضيّق عليه فرص المناورة ، فالشمس كادت تتوارى عن الأنظار ، كما أن تأخُّر البنت ليلاً مستهجن وهي تعود برفقة شاب وحدهما ، ولا يستطيع أن

يتركها وحيدة. فما الحل الذي يخلصه مما هو فيه ؟ عصر فكره غير مرة، ثم قدّر، فاهتدى إلى حيلة عساها تنجح في انقياد البقرة إلى الطرف الآخر. فقال للفتاة:

– أمامنا حل سوف أختبره لعله ينجح.

– قل ما هو ؟

– سأمسك زمام الفرس بيد، وبالأخرى زمام البقرة. أما أنت فكوني خلفها. وسأسحبهما معًا فإذا تلكأت البقرة هزها، وإن لم تستجب فقومي بضربها على مؤخرها لعلها تتشجع وتقتدي بالفرس.

– فكرة حسنة، لكن لا عصا لدي.

– لا تهتمي معي عصا أهز بها الفرس، قولي لي هل تمنّعت البقرة من قبل؟

– لا أبدًا هذه المرة الأولى.

– إذن هي تتقصدني، سأريها من عبدالله؟

- أنا صاحبتها ، فالأولى بي أن أعرّفها بك : اسمعي ، واحذري ، بقربيّ ، عبدالله فارس ماهر ويجيد الصيد ، كما يجيد التفوق فقد احتفلت به المنطقة منذ سنوات.

- كلامك يا ابنة الأجاويد ملفت ، فماذا تعرفين عني أيضًا ؟

- أعرف الكثير ، فحديثك ملء الأفواه ، والأمهات يضربن بك المثل في تفوقك في الكتّاب.

- الله يرحم تلك الأيام ، فأطفال اليوم يذهبون إلى المدارس ويتعلمون على يد معلمين مؤهلين ، ويمكنهم إن تفوقوا أن يتابعوا دراساتهم في المدينة ، للحسرة علينا فاتنا الكثير.

أحبت الفتاة تذكير عبدالله بضيق الوقت، فقالت :

- يبدو أننا نسينا أنفسنا ، لقد تأخرنا ، وأمي ستكون قلقة، فأخشى أن تأتيَ ورائي.

- معكِ كل الحق، هاكِ العصا وأعطيني زمام الفرس.

أمسك عبدالله زمام الفرس بيده اليسرى وباليد الأخرى زمام البقرة وقرَّب يديه من رأسيهما وسار في وسطهما ، والفتاة خلف البقرة. سحبهما معًا ، فلما وصل طرف الساقية نزل ، فنَزلت الفرس ، لكن البقرة تمنّعت ، فشدّها بقوة ، تقدّمت قليلاً ثم تراجعت فنهرها وفي الوقت نفسه ضربتها الفتاة بعصا على مؤخرتها ، فنَزلت إلى الماء وسارت بمحاذاة الفرس حتى اجتازتا الساقية. تنفس الصعداء لنجاح محاولته. ضحكت الفتاة وقالت : حقًا ، أنت ذكي ، وصياد ماهر.

نظر إليها ، فإذا بها تحدّق في عينيه ، فاستقرأ شيئًا ما وقال :

- أنتِ لستِ بأقل مني، لا بأس عليك.

- يا حسرة من أين لي ذلك؟

- ستثبت لك الأيام صدق مقولتي.

رمقها بطرف خفي، وكانت تبادله الفعل، لكن سرعان ما خطفت بصرها خشية أن يكشفها فشعرت برعشة لم تعرفها من قبل.

تابعا طريقهما إلى القرية صامتين كلاهما يفكِّر بما قاله الآخر. فلما وصلا بيت الفتاة وجدا أمها أمام الباب قلقة مؤنبة: لقد تأخرتِ وشغلتِ بالي.

عبدالله: – السلام عليك يا خالتي.

– وعليك السلام يا ولدي، لا تؤاخذني، قلقي على تأخر البنت شغلني عنك، أرجو أن تقدر حالتي فتقبل اعتذاري.

– لا تهتمي خالتي، أنا بمنْزلة ولدك، ولديك الحق أن تقلقي.

توجهت المرأة إلى ابنتها سائلة عن سبب تأخّرها. نظرت الفتاة إلى عبدالله وقالت: أماه سيجيبك عبدالله.

هنا سقط في يده واضطر أن يقصّ على الأم ما حصل، شكرته وألحّت عليه أن يدخل إلى البيت ليأخذ قسطًا من الراحة، لكنه وعدها أن يزورهم في وقت آخر. فأودعته أمانة أن ينقل تحياها لأمه.

بقيت الفتاة في ليلتها تفكر بقوله: (وأنت لست بأقل مني) أيعني بقوله: إنني صيادة؟ فإن عناها فما قصده منها؟ تذكّرت الرجفة التي انتابتها عند الحديث إليه أول مرة.

مضى الهزيع الأول من الليل وهي تعاني الأرق، فلم تتمكن من النوم، فخشيت أن تكشف أمها أمرها.

أما عبدالله فلم يكن بأقل منها قلقًا، لأنه لا يقدر على تفسير تطلعاها إليه. فمن قبل صادف فتيات كثيرات لم يكنَّ يرى ما رآه بعينيها. بعد معاناة طالت تمكَّن من النوم وترك للأيام تفسير ذلك.

سار عبدالله يتقصد المرور في المكان عينه ليراها، كما هي تنتظر مروره بفارغ الصبر. فإذا لمحته من بعيد لجأت إلى

الحيلة متخفية كيلا يراها ، بينما تسترق النظر لترى أيمر بشكل اعتيادي أم يطالع المكان يمينًا وشمالاً بحثًا عنها؟

توالت المحاولات بمرور الأيام فذات مساء مرَّ عبدالله من جانب حقلهم فصادف خروجها مع بقرتها. سلَّم عليها ، وقال:

- هل حصل أن تمنعت البقرة عن اجتياز الساقية؟

- أيمكنها ذلك وعبدالله وراءها وراءها؟

ضحك من كلامها وحاول أن يسير بسرعة ليشعرها أن الأمر طبيعي، ولا شيء في نفسه نحوها. لكنها قبل أن يبتعد قالت: ألا تبرّ بوعدك لأمي؟.

فهم قصدها وقال: سلمي عليها وفي أقرب وقت بإذن الله.

استمر هذا الحال فترة ، فكلما قصد عبدالله الصيد ليخفف عن نفسه تقصّد المرور بالطريق نفسه عسى أن يلمحها، ولم تكن بأقل منه شوقًا.

ذات مرة رأى الأم تسوق البقرة. سلّم عليها ودار بينهما حديث استمر حتى وصولهما إلى البيت، فعزمت عليه أن يدخل ويبرّ بوعده. وافق على تلبية الدعوة، فهمَّ بعقل الفرس خارج البيت ، لكن الأم رفضت ، فأخذت منه زمامها وأدخلتها إلى الحظيرة، ثم فتحت له باب غرفة جانبية في الدار ، لما دخلها نظر إلى فرشها فوجده مرتّبًا نظيفًا ، فأعجب بما رأى وسرّ كثيرًا وبخاصة عندما رأى لوحة فنية، مسترخية على الجدار، يظهر فيها فارس يتوشح حمالة سيفه، ممتطيًا فرسًا ، فأخذ يتأملها محدقًا ، فلما أقبلت المرأة تحمل ماء سألها :

– خالتي لمن هذه الصورة في اللوحة؟

تنهدت المسكينة بعمق وقالت :

– يا روح خالتك هذه لأبي محمد زوجي.

– غريب ، خالتي ؛ فأنا أعرف معظم رجال القرية ، فأبو محمد أراه في الصورة للمرة الأولى.

- زوجي يا ولدي توفي منذ سنوات ، ولم يكن ممن يتردد على مضافة المختار ؛ لذلك لن تعرفه.

- يبدو لي أنه يحب الفروسية.

تنهدت ثانيةً ، فالسؤال أعاد لها بعضًا من ذكريات زوجها. بدأت تحدّثه عنه وعلامات الأسى ترتسم على ملامح وجهها.

- ولدي ، إرادة الله فوق كل إرادة فقد شاءت أن تفرق بيننا مبكرًا ، لقد مضى على رحيله عنا أكثر من خمسة عشر عامًا.

في هذه الأثناء دخلت ليلى تحمل صينية يتوسطها إبريق الشاي وتسوره كؤوس تلمع من شدة نظافتها ، وصحن صغير مملوء بالنعناع البلدي الأخضر الذي يتضوع عبقه حتى كاد المكان يضيق به ، وآخر فيه سكر. سلمت ، فنظر إليها معاتبًا :

– أتتركين خالتي ترعى البقرة، وأنت في البيت.. أيصح هذا؟

كان وقع كلامه على قلبها أشهى من العسل، فاعتبرته تلميحًا يمكن البناء عليه فمنذ اللقاء السابق وهي تتقصد رؤيته، آملة أن تسمع منه شيئًا ما. ردت عليه:

– لن أفعلها مطلقًا ما دامت رغبتك ألا تذهب والدتي إلى الحقل. واستدركت: يا سيدي لولا ذهاب والدتي اليوم إلى الحقل لما رأيناك في بيتنا.

وضعت الصينية على الطاولة، ثم أخذت الإبريق وسكبت كأسًا من الشاي ووضعت ملعقة سكّر ثم حركتها، حملت الكأس على الصينية وبجواره صحن النعناع وانحنت لتقدم له ضيافتها. نظر إلى عينيها فتسمرت عيناه في عينيها اللتين لم تكونا بأقل رغبة من عينيه في هذا اللقاء الواعد، لكنه خشي أن تكشف أمها لواعج بدأت تتحرك في نفسه فأشاح ببصره قليلاً وأخذ الصينية كاملة غير مكتف بالكأس والنعناع، واسترق نظرة ثانية من عينيها.

وشفتاها تقولان : تفضل بالهناء ، تركت لك النعناع لتضع ما تريد إن كنت تحبه في الشاي.

أجاب وعيناه ترمقاها من رأسها حتى رجليها : أيمكن لأحد أن يتجاهل نكهة النعناع البلدي في الشاي؟

ولكي يتخلص من مشاعره التي كادت تفضحه أخذ عودًا من النعناع وشرع ينْزع وريقاته ثم يلقمها في الكأس المملوءة شايًا ، محاولاً خطف نظرة بعد أخرى ليرى عينيها تبرقان بلغة لا يعرفها إلا العاشقون ، فلم تقو عيناه على مجاراتها ، فقفل راجعًا بهما ليأخذ عودًا آخر من النعناع منشغلاً به فقد بدت له جريئة ، وعيناها لم تنكسرا ، فبدا له أنها معجبة به وربما وقعت في حباله فبادلها الإعجاب بشخصها خفية. أنى له أن يتأكد من هذا الإحساس؟

امتدت يده إلى الكأس ، ثم رفعها إلى فمه ورشف منها فخرجت منه كلمة : الله الله! تعبيرًا عن إعجابه وسعادته بما تذوّقه من طعم لذيذ ، ثم نظر إلى الأم قائلاً : خالتي ، يبدو لي

أن ليلى تعلمت إعداد الشاي من حضرتك ، كم طعمه لذيذ.

- ولدي ، هذا الثناء من طيبك ، منذ زمن طويل وأنا أعلّمها كل شيء ستحتاج إليه في بيتها مستقبلاً.

- لقد أحسنتِ صنعًا ، فنكهة الشاي بالنعناع فائقة اللذة.

خلال كلامه للأم اختلس نظرة سريعة لوجه ليلى ، فلمح على محياها قسمات السعادة بما تسمعه من إطراء ، فتابع :

- يبدو أنها طاهية ماهرة أيضا ، لكنها للأسف لا تجيد رعي البقرة.

ضحكت الأم وقالت :

- الأيام ستعلمها الكثير.

تذكر فجأة أنه تأخر عن العودة.

- خالتي لقد سرقنا الوقت ومر معك بسرعة. أتسمحين لي بالانصراف؟

- لك ما تشاء، وإن كنا نرغب في أن تبقى مدة أطول معنا.

ثم توجهت إلى ليلى، وقالت:

-اذهبي إلى الحظيرة واحضري الفرس لفارس المنطقة رعاه الله.

- شكرًا، خالتي على رأيك فيّ لقد غمرني لطفك. أما الآن فأستودعكما الله الذي لا تضيع ودائعه.

- ولدي لا تنس أن تسلم على والدتك، وأهل البيت الآخرين.

- أنت تأمرين، سيكون.

أخذ زمام الفرس ونظر نظرة خاطفة إلى عينَي ليلى مودعًا، والأمل يحدوه أن يلتقي بها ثانية.

مرَّت الأيام كالعادة في مسيرها الدائبة ، مخلفة مسافة زمنية طويلة فصلت بين لقاء عبدالله الأخير وكل من ليلى وأمها ، لتحمل معها أخيرًا ما كان ينتظره من إعلان القوات المسلحة عن بدء تقديم الطلبات للالتحاق بدورات مدارس صف الضباط.

سمع عبدالله الخبر فلم يكد يصدق ، فقد طال انتظاره وملَّ صبره ، لذلك في اليوم التالي جهّز أوراقه ، وقصد العاصمة دمشق ليقدمها لأقرب مكتب معني باستقبال طلبات راغبي الانتساب للقوات المسلحة.

ولما وصل دمشق ، وجدها مدينة كبيرة قياسًا بالقرى القريبة من بلدهم ، تعج بالمارة والسيارات ، فراح يسأل المارَّة وأصحاب المحلات التجارية عن المكان ، فلما اهتدى إليه بعد بحث طويل دخله وسلَّم أوراقه لأحد الموظفين ، الذي فحصها ورقة ورقة ثم أعطاه قسيمة تحمل رقم طلبه ، ومواعيد الفحوص الطبية.

غادر عبدالله العاصمة متوجهًا إلى القرية سعيدًا بما فعله، متشوقًا إلى رؤية ليلى التي سيتركها إن قُبل، كما سيترك هواية الصيد والفروسية. فسرّح خياله باحثًا عما يشغله، ويخفف عنه وطأة مشاعره تجاه متروكاته. وأمّل مشاعره بالقادم من الأيام، فقبوله في الدورة ونجاحه يمنحانه فرصة تأسيس أسرة، فإن تأكد له أن ليلى تبادله المشاعر نفسها فسيطلب إلى أبيه أن يخطبها بعد تخرجه في الدورة.

وصل القرية مساءً، وبدأ رحلة الانتظار من جديد، يتطلع إلى موعد الفحص الطبي الذي إنْ نجح فيه يقرِّبه من هدفه، لكنه فوجئ بخاطرٍ يلحُّ عليه أن يخبر ليلى بما عزم عليه علَّه يتلمس من ردة فعلها بعض مشاعرها. فكر بطريقة تمكنه من لقائها، إلا أنه تريث منتظرًا قبول طلبه أولاً ثم اجتيازه الفحوص الطبية.

هذه المرة كان عبدالله محظوظا لم يطل انتظاره، فبريد أبيه القادم من دمشق حمل له كتاب الموافقة على طلبه، ودعوته للفحص الطبي.

فرح كثيرًا بالخبر الذي أخفاه عن الكل إلا أبويه، وبقي يمارس نشاطه وهواياته المعتادة في المضافة، حتى جاء موعد الكشوفات الطبية التي أجراها في دمشق، وتوّجت بأنه لائق طبيًا، فلم يبق أمامه إلا إبلاغه بالقبول وبدء الدورة.

عاد إليه خاطره السابق بأن يخبر ليلى التي انقطعت أخبارها عنه منذ زيارته الأخيرة، فتقصّد أن يراها كما كان يحصل من قبل في حقلهم مع بقرها. خرج ضُحىً إلى البراري سالكًا الطريق نفسه آملاً رؤيتها ذهابًا أو إيابًا، لكنه لم يحظ بما أمّل. وعد نفسه بأن يكرر المحاولة ثانية عساه يراها، لكن الظروف عاكسته فلم يتسنّ له أن يخرج إلى البراري، بل تفاجأ بوصول كتاب يستدعيه للالتحاق بالدورة. حزن كثيرًا لأنه سيغادر القرية من دون أن يكحّل عينيه برؤيتها، ويشنّف أذنيه بسماع ما يرغب منها، وقال: يبدو أنني حرمت رؤيتك يا ليلى... اطمئني لن يطول غيابي عن القرية فإن عدت فسوف أعوضك ما فات بإذن الله.

ودّع أباه وأمه وأخاه ومن عزَّ عليه في القرية؛ باستثناء من أُعجب بها وشعر نحوها بشعور غريب لم يتأكد من صدقه ومدى مبادلته المشاعر مضطرًا أن يلتحق بالدورة التي طالما حلم بها ؛ ليمارس حياة جديدة مختلفة عن حياة ونشاط أهل القرية.

# الفصل السابع

وصل عبدالله مدرسة التدريب في غوطة دمشق، وقدَّم كتاب قبوله لمسؤولي الدورة بادئًا حياة مختلفة عن حياة القرية بكل المقاييس. في الدورة تدريب منظّم في جزأي الليل والنهار، كل شيء بنظام، ووفق خطة مسبقة يعمل على تطبيقها أناس ماهرون ملتزمون ينقادون لمن أعلى منهم رتبة. الوقت ثمين، فهو مملوء بالكامل بالمهام، فلا فراغ، وإن وجدت فسحة من فراغ فستكون لمامًا عليه استثمارها في مراجعة ما أخذه من معلومات، ليحقِّق طموحه بالتفوق؛ فطبعه لا يرضى بأقل من الترتيب الأول على أقرانه، لهذا ضاعف جهده في المذاكرة ليل نهار، ملتزمًا بالتعليمات كلها حتى يجتاز الاختبارات النظرية والعملية، كما خطَّط حتى يحظى بتكريم ثان يضيفه لتكريم قائد منطقة قطنا، فبالتأكيد سيكون التكريم الثاني ذا نكهة مختلفة، فالذي سيقدِّمه

للفائق الأول هو قائد الدورات ، ومدير المدرسة الفنية نفسها ، لهذا ألزم نفسه المذاكرة الجادة ، فاجتاز الاختبارات بتفوق ليحصد نتيجة ما خطَّط له تفوقًا ، متقدمًا على أقرانه في الدورة ، فغدا تكريمه ممن حلم بهما واقعًا. ففي احتفال التخرج الرسمي كُرِّم من قِبلهما ، ومُنِح إجازة أطول من إجازات زملائه الآخرين ، وأصبح رسميًا يحمل رتبة عريف في الجيش.

امتدَّ أثر التفوق إلى أن يعرض عليه مدير المدرسة أن يكون مدربًا للدورات القادمة ، لكنه اعتذر راجيًا إعفاءه بسبب ظروفه الاجتماعية التي تتطلب مساعدة أهله بما يوفره من مال ، ففي منطقته العديد من القِطع العسكرية التي تحتاج اختصاصه.

غادر عبدالله المدرسة إلى القرية لقضاء إجازته ، ولَمَّا وصلها طلب من أبيه التواصل مع صديقهم القائد علَّه يساعدهم في مكان الفرز ، فالرجل معارفه كُثر وأصحاب باع في مثل هذه الأمور.

تواصل المختار مع الرجل الذي لم يتوان بدوره، حيث تمكَّن أحد معارفه من فرز العريف الجديد إلى موقع قريب من بلدته.

انقضت أيام إجازة عبدالله التي قضاها في البراري بين الصيد والفروسية، وحضور سهرات ممتدة مع أصدقائه إلى وقت متأخر من الليل. والأمل يحدوه بأن يرى ليلى ترعى بقرها، فكلما اقترب من أرضهم؛ نظر يمينًا وشمالاً ليراها، إلا أن محاولاته باءت بالفشل، ما شغل باله عليها أكثر من ذي قبل، ولم يكن يمتلك الجرأة للسؤال خشية أن يكون متوهمًا في مبادلتها له نفس الشعور. منّى نفسه أن يبحث عن طريقة في قادم الأيام توصله إليها.

انتهت أيام الإجازة، فودّع أهله متوجهًا إلى المدرسة ليتسلَّم كتاب الفرز، الذي حمله وذهب به مباشرة إلى مركز اللواء المعني. ولما وصله سلمه إلى رئيس الديوان، منتظرًا أن يعطيه جوابًا للقطعة التي سيخدم بها. تسلّم كتاب التحويل فتبين له أن القطعة قريبة من قرية تسكنها أخته

الكبرى. فرح كثيرًا ، فها هي أحلامه تتحقق واحدًا إثر الآخر ، فشعر بالزهو والنشوة ، لذلك عزم على الوصول إلى المعسكر قبل المساء. وبالفعل حطَّ ركابه فيه مساءً ، وسلَّم كتاب الفرز إلى المناوب في ذاتية المعسكر ، والذي سلَّمه كتاب عمله كمشرف على حُرَّاس المعسكر ؛ يرتِّب أماكنهم وأوقات حراساتهم ويراقبهم.

صادف التحاقه بالمعسكر فترة لملمة الصيف شتاته بعدما شعر أن الخريف يزحف ليمحو بقاياه، وليبشِّر بفصل يحمل النماء للكون.

لم تمضِ أيام على بدء الخريف حتى تغيّرت الأنواء ، فانهمرت أمطار غزيرة مغيِّرة معالم الأرض ، وغطَّت المسطحات المائية أجزاء واسعة وصلت إلى المعسكر فغمرت الطريق الواصل بينه وبين الطريق العام ، ما حال من دون الوصول إليه. لمح عبدالله مشهد الجزء المغمور من الطريق فوجده منخفضًا وملاذًا تتجمع فيه الأمطار. فكّر في عمل يحول من دون تجمعها ، ولما اهتدى للفكرة طرحها على قائد

المعسكر بأن يرفع مستوى الأرض لتكون أعلى مما حولها. وافق قائد المعسكر على الفكرة مبدئيًا، وطلب إليه وضع خطة كاملة قابلة للتنفيذ. جلس عبدالله يفكر بطريقة مناسبة فهداه توقّد ذهنه لأن يستعين بأهل القرية الذين يستخدمون هذه الوصلة للذهاب إلى حقولهم الشرقية خلف المعسكر، فهم شركاء في النفع، ولما اكتملت الخطة بين يديه وضعها أمام قائد المعسكر الذي وافقه وكلفه بتنفيذها.

بدأ عبدالله الخطوة الأولى بدعوة مختار البلدة ووجهائها، وأطلعهم على مشروعه، آملاً مساعدتهم على إنجازه، مبينًا مردوده النفعي على سالكي الطريق، كما عرض عليهم أنَّ قائد المعسكر سيوفِّر الآليات والإشراف، وعلى أهل القرية توفير اليد العاملة لجمع الحجارة وفرشها.

وافقت الهيئة الاختيارية على الفكرة، وطلبت منه إعطاءها فترة لترتيب كشوف أبناء القرية القادرين على العمل. وافق على مطلبهم شريطة أن يزوده بها المختار قريبًا حتى يبدأ التنفيذ قبل أن تشتد الأنواء وتتكاثر الأمطار.

عاد المختار والوجهاء من المعسكر، واجتمعوا برؤساء العشائر ليرشحوا العمال المشمولين بالسخرة وفق نسبة عددية ترتبط بالأرض التي يمتلكها كل فرد في تلك البقعة. ولما أصبحت الكشوف جاهزة زودوا بها عبدالله الذي حدَّد يوم البدء في تنفيذ الخطة.

جاء الشبان المسخّرون صباحًا إلى المعسكر، فاستقبلهم عبدالله واختار منهم عشرة يذهبون مع إحدى السيارات إلى الحقول لجمع الحجارة، بينما يقوم الخمسة الآخرون برصها في المكان المنخفض.

سار العمل على قدم وساق وفق الخطة المرسومة له. خلال فترة تطبيق جدول السخرة برز دور شقيقة عبدالله من دون نساء القرية الأخريات، فغدا بيتها مقصدًا لكل من يود تغيير يوم سُخرته حتى تتوسط لدى أخيها ليغيِّر له يومه خوفًا من العقوبة التي استحدثها عبدالله، فمن يتغيب عن سخرته يُسجن يومين في المعسكر إضافة لسخرة يومين

متتالين. بهذه الجدية أنهى رصّ الحجارة ورفع مستوى الطريق خلال فترة وجيزة.

نظر عبدالله إلى الطريق المرصوص حجارة فلم يرق له أن تبقى حجارته مكشوفة، فالأجمل أن يُفرش بالحصى الصغير ليسهل المرور عليه. عاد إلى قائد المعسكر وعرض عليه خطة فرش الطريق بحصى أصغر تسهيلاً على المارة والسيارات. فالخطة تقضي بأن يكلف كل سيارة تنقل الرمل الأبيض من المكاسر إلى مدينة القنيطرة بملء حاويتها مرة أسبوعيًا بالحصى الصغير، ثم تفرّغها على الطريق ليقوم الشبان بفرشها، ولما حصَّل الموافقة؛ شكَّل دورية من الشرطة العسكرية بالمعسكر تتولى إيقاف كل سيارة تتجه إلى المكاسر وإبلاغها بما يترتب عليها تجاه فرش الوصلة وإلا فستمنع من استخدام الطريق بأمر قائد المعسكر ذي التأثير في المنطقة.

تسارع السواقون إلى تنفيذ سخرهم، فلم يمضِ أكثر من أسبوعين حتى أصبح مفروشًا بالحصى، يسلكه أهل القرية

والسيارات العسكرية بسهولة مهما كثرت الأمطار. هذا العمل جعل لعبدالله بصمة ، فكل أهل القرية عرفوه واعترفوا له بالجميل لأنه خفف عنهم عبء المسير في طرق جانبية تفاديًا للمسطحات المائية.

أيام عبدالله المعطاءة لم تطل في المعسكر ، فبمجرد أن أُعلن عن دورة في السواقة ؛ انتسب إليها. فلما فتحت أبوابها ودّع عبدالله أخته وبيت حميها وزملاءه ومسؤوله في المعسكر للالتحاق بها ، آملاً أن يتخرج سائقًا ، ليستبدل بركوب الخيل قيادة السيارة.

قضى مدة الدورة في التدريب الجاد. بذل خلالها كل ما أوتي من فطنة وذكاء ومثابرة ليحصد التفوق كعادته ، يؤازره على ذلك عزم ورغبة مكنته من تحقيق نتائج متقدمة ليكون ترتيبه الثاني على السواقين في الدورة التي صادف إعلان نتائجها افتتاح فرع للمخابرات العسكرية في مدينة القنيطرة عاصمة الجولان سمّي بـــ(المكتب الثاني). هذا المكتب ارتبط بشعبة المخابرات العسكرية في دمشق مباشرةً

لذلك فرزت شعبة المخابرات العامة في الجيش أحد ضباطها الأكفاء ليرأسه. هذا الضابط على معرفة بمدير مدرسة السواقة، فطلب منه أن يفرز له سائقًا بارعًا، فرشح المدير عبدالله. بدأ عمله سائقا لدى رئيس المكتب، فالمعروف إن من يعمل في مثل هذه المكاتب الحساسة يجب أن يتحلى بصفات خاصة على رأسها حفظ الأسرار وتحمُّل المسؤولية والانضباط والشجاعة والتجلد وحسن التصرف.

خضع عبدالله إلى اختبار وتمحيص دقيقين من رئيس المكتب شخصيًا، أثبت خلالها كفاءة قلَّ نظيرها من التزام دقيق بالوقت، وتنفيذ للأوامر، وحسن تصرف، وإخلاص في العمل وسرعة إنجاز، وكتمان الأسرار، ما أهّله أن ينتزع حُب رئيسه وثقته، فغدا المقرب الأول، وأصبح عنصر الاتصال المباشر بينه وبين مسؤولي الشعبة في رئاسة الأركان.

في أثناء عمل عبدالله في المكتب تعرَّف على عسكري أعلى رتبة منه، فنشأت بينهما صداقة مكّنته من أن يطلب

إليه أن يبحث له عن غرفة للسكن تكون قريبة من مقر العمل.

بدأ العسكري الصديق البحث عن غرفة لعبدالله فيما حوله، فعرف أن جيرانه في الحي يرغبون في إيجار غرفة، فقصدهم لاستئجارها، ولمَّا سألوه عن المستأجر ذكره لهم، وأثنى على خلقه، فوفقوا على تأجيره.

قدم عبدالله ليطالع الغرفة، فراقته من حيث نظافتها وقُربها من عمله وقيمة إيجارها، فوافق عليها.

شرع عبدالله وصديقه يجلبان الحاجات الضرورية فقط، لأن طبيعة عمله تقتضي الخروج صباحًا والعودة ليلاً، فرئيسه كثير التنقل بين دمشق والقطعات العسكرية في منطقة الجبهة مع العدو الصيهوني.

ذات يوم - على غير العادة - وصل عبدالله غرفته مبكرًا، فقال في نفسه: سأقوم بغسل ثيابي... وبينما هو منهمك بعمله؛ إذ بالباب يقرع. اقترب منه وفتحه، فتفاجأ

بفتاة تقول : السلام عليك جارنا ، أبي يدعوك لتسهر معه. شكر عبدالله لها صنيعها ، وقال : سلمي عليه ، سآتيه بعد لحظات.

استغرب الدعوة ، لكن الواجب يحتم عليه تلبيتها. أوقف عمله وتوجّه إلى غرفة مضاءة في طرف الدار. طرق بابها فاستقبله صاحب المنْزل مرحبًا :

– ادخل يا ولدي.

– السلام عليك عمّاه.

– وعليك السلام والرحمة يا ولدي.

جلس عبدالله في صدر الغرفة مطمئنًا لأنه اعتاد هذه المواقف في مضافة أبيه، فدار بينه وبين الرجل حديث طويل تعرف كلاهما الآخر وكسرا جدار جهل أحدهما للآخر ، فكان لقاؤهما حلقة في سلسلة صنعتها الأيام المقبلة التي أطالت في غياب عبدالله عن قريته التي فيها أهله ومن شغلت مشاعره يوما. لم يخطر قط في باله أن مشاعره تجاه

ليلى ستخبو، لكن الأيام والبُعد ومشاغل العمل الجديد وما فيه من مفاجآت وتبعات، وفقدان وسائل التواصل بينهما جعل المقولة التالية تنطبق على مشاعره (البُعد عن العين جفاء) فالبُعد حقًا أخذ دوره، فبدأت تتآكل المشاعر التي كانت تنتابه بين وقت وآخر تجاه ليلى، فبمجرد أن يسلم نفسه للفراش ويسرح هنيهة ليتذكر طيفها يذهب في نوم عميق. هذه الحالة تكررت معه غير مرة، كما أسهم في فتور مشاعره أكثر الطارئ الجديد على حياته، والمتمثل في اقتراب من ستعوضه عنها التي أطاحت بما تبقى من مشاعر تجاه ليلى.

تكررت دعوة صاحب الدار لعبدالله ليسهر معه ويبادله الحديث لما وجد عنده أُذنًا صاغية لحديثه واحترامًا للآخرين وبُعد نظر على الرغم من صغر سن جليسه عبدالله نقيض ما عرفه من شباب جيله. فالشاب يتسم بالهدوء والوعي والصدق والأمانة، وتحمل المسؤولية. فإن كلفه عملاً أنجزه بإتقان كأنه له، ما أكد له سلامة طوية الشاب، فأحبه

وتعلّق به كولد له. فكلما كلمه أو أصغى إلى حديثه انتابته مشاعر غريبة لم يشعرها وهو يحادث صهره ابن أخيه الذي زوَّجه ابنته البكر. فذات يوم شكا الرجل لعبدالله عبث بعض العسكريين في كرم له يقع على سفح تل مطل على مدينة القنيطرة عُرف بـــ(تل علي أبو الندى) قريبًا من أحد المعسكرات، فبعض الجنود يدخلون إلى الكرم لأكل العنب لكنهم لا يكتفون بما يأكلون بل يقطفون كميات تزيد عن حاجاتهم ثم يتركونها مشوهة المكان وباعثة الحشرات فيه... كان عبدالله يصغي للحديث حتى النهاية. في اليوم التالي نقل شكواه إلى المسؤول الأمني بالمعسكر الذي انزعج كثيرًا من هذا التصرف المشين، ووعد بمعالجته فورًا. فأخذ يراقب الكرم بنفسه كلما سمحت له ظروفه وقت القيلولة. ذات يوم رأى بضعة جنود يدخلون إلى الكرم. ترك لهم فرصة، ثم كلَّف حاجبه أن يذهب إليهم ويأخذ أسماءهم، وليتأكد من صحة الشكوى. ذهب الحاجب وراءهم لتنفيذ المهمة ثم عاد إليه بما رآه في الكرم، وسلمه ورقة فيها أسماؤهم، فأمر

المسؤول الأمني مباشرة إدخالهم سجن المعسكر. في صباح اليوم التالي استدعاهم إلى الطابور ، وطلب إلى أحدهم أن يقص على مسامع الجنود ما فعلوه في الكرم ، ولما انتهى العنصر حذر ضابط الأمن العسكريين من العبث بممتلكات المواطنين، مذكرًا بأن صُلب عمل القوات المسلحة هو حماية الوطن وأبنائه والمحافظة على ممتلكاتهم ، ثم توجه لأصحاب الفعل ووبَّخهم توبيخًا شديدًا ، وأمرهم بالعودة إلى الكرم لتنظيفه كله والعودة إلى السجن لثلاثة أيام ، كما قرر أن يقضوا إجازتهم الدورية الأولى في المعسكر.

زار الشاكي الكرم بعد أيام فتفاجأ بنظافته فلم يكد يصدق ما تراه عيناه. تساءل عن سر ذلك، وليبعد الشك كرَّر الزيارة فوجده على حاله الأولى ، حتى إن مخلفات الجنود اختفت ، فأيقن أن جاره عبدالله وراء هذا. كبر الشاب في نظره أكثر لأنه لم يخبره بصنيعه. واعتبر الرجل هذا السلوك دليلاً صريحًا على نقاء الشاب ومروءته ، فأحب أن يختبر طباعه أكثر وردة فعله في بعض المواقف ،

فأوزع لبناته أن يدخلن غرفة عبدالله في غيابه ينظفنها. عاد عبدالله مساءً فوجد الغرفة مختلفة بالكلية ترتيبًا ونظافة، فراقه الصنيع، لكنه تجاهله، ولما تكرَّر؛ وصلته رسالتهم فأثّرت فيه، حيث لمس كم الطيبة التي يتمتع بها هؤلاء القوم فزاد قربه منهم، وشعر بميل إلى إحدى البنات. فكّر جدّيًا أن يطرح رغبته بين يدي الأب على الرغم من معرفته أن الأسرة ليست عربية الأصل، وأنهم يتحفظون على زواج بناتهم من غير أصلهم، فإن حصل زواج من غير عرقهم فهو قليل. تردد خوف الفشل، لكن الأيادي البيضاء الممتدة لجيرانه دفعته إلى أن يطلب يد إحدى البنات، متسلحًا بعون الله، ثم رصيده الخلقي، فهما سفيران له إن كان له نصيب – كما يقال – فلن يخيب رجاؤه.

عاد ذات يوم مبكرًا آملاً أن يدعوه الرجل للسهر كالعادة. لم يمض على صلاة العشاء دقائق حتى سمع باب غرفته يقرع فتحه، وإذ بإحداهن تسلم وتقول: جارنا يدعوك أبي للسهر عنده. شكرها ووعدها تلبية الدعوة.

شاغل نفسه بحاجات بعض الوقت حتى لا يبدو شديد الرغبة في اللقاء، ثم همَّ نحو الغرفة المضاءة، قرع بابها. فتح الرجل مرحبًا به، وأخذ بيده، وأدخله إلى صدر الغرفة.

جلس عبدالله على غير عادته مرتبكًا. فحاول الرجل استقراء السبب قائلاً:

- ولدي لست كعادتك، طمنّي هل من شيء؟

- لا... لا... أبدًا يا عمّاه.

- ولدي أنت بمثابة ابني، بالله عليك لا تخفِ معاناتك عني، فلعلّي أساعدك.

- شكرًا جزيلاً عمّاه، تأكد أنني أبادلك المشاعر نفسها فأنت بمقام والدي، فلو كان الأمر يحتاج إلى مساعدتك لبحتُ لك مستشيرًا وطالبًا معونتك.

- يبدو يا ولدي، قد حصل لك شيء في عملك عكّر مزاجك.

- لا... يا عمّاه، بس...

- بالله عليك تقول بس... ماذا، تكلم، شغلت بالي.

هذه الدردشة بدَّدت جزءًا من ارتباك عبدالله، لكنه ما زال مترددًا في طالب يد الفتاة خوفًا من سماع ما لا يليق بشخصه، وقد يلحق الضرر بسمعته وبالثقة التي نالها منهم.

مضى وقت وعبدالله لم يجرؤ على مفاتحة الرجل بما يريد. خشي ضياع الفرصة فعزم أن يضع حدًا لتردده، جمّع ما بقي لديه من شجاعة ورباطة جأش، وتعوّذ من الشيطان في سرّه، ثما دعا ربّه أن يمدّه بعونه فقال:

- عماه، مضى على سكني بينكم فترة، هل من ملحوظة لكم على سلوكي؟

- سؤالك غريب يا ولدي... لا والله ما شهدنا منك إلا الرجولة والمروءة وحُسن الخلق.

- إذًا تشهد لي بحُسن الخلق. هذه شهادة اعتز بها... عماه لو طلبت فتاة للزواج، فهل تتوقع أن يوافق أهلها عليّ؟

- بالتأكيد، سيكونون مسرورين، كم من أب يتمنى أن يأتيه شابٌ مثلك لابنته!

تنفّس عبدالله الصعداء، وشعر بدوار لم يخرجه منه إلا سماع الرجل يقول:

- لا تتردد فإذا أردت التأكد مما أقول كلفني لأطلب لك العروس بنفسي.

- عمّاه لا أدري من أين وكيف أبدأ؟

- حبيبي، لِمَ هذا التردد في أمر أباحه الله لخلقه، بل حث عليه؟ فأوله التقدم لأهل البنت.

- عماه أنت ذو شأن عظيم لدي، بمقام أبي، فأحبُّ أن يبقى طلبي سرًا في حدود أسرتك، فما رأيك؟

- عهدًا. أن يبقى كلامك سرًا، كما تريد.

- عماه، أعتذر لك عن جرأتي. إن لطفك ودماثة خلقك سمحتا لي أن أبوح بسري، بعدما سكن حبكم فؤادي، وغمرني فضلكم وما لمسته منكم من طيب واحترام

وتقدير ورعاية، رغَّبني في تعميق صلتي بكم وبخاصة أنت، فقد غدوت مصدر إلهام لي فأتمنى أن تبقى، لذلك تملكت الجرأة والشجاعة وسمحت لنفسي أن أتقدم طالبًا يد كريمتك سميّة، فما رأيك؟

كان طلب عبدالله مباغتًا جعل الرجل يصارع مشاعر متناقضة، عاطفة ترفض، وعقل يقبل، ولكُلٍّ حجته ومبرره، فحجة عقله أن عبدالله غدا حبه الأول من خارج بيته فكأنه ولده، يسرّ به كلما رآه، وعرفه على حقيقته. لم يشك أحد من بيته أو الجيران منه تصرفًا غير لائق، فالشاب ذو شهامة وخلق رفيع ومروءة قلّما يتملكها شباب اليوم... تلك عوامل تجعل كل أب يتمناه لابنته... في حين كانت العاطفة تحتج بأنه مرتبط بانتمائه لعِرقه، فهو يعتبر من أكثر المعارضين لزواج بناهم أو أولادهم من أعراق أخرى كيلا يذوب وجودهم ويتلاشى، فالزواج من وإلى الأعراق الأخرى يشتت أتباع الأقليات، وبمرور الزمن تذوب هويتهم، وتضيع لغتها.

عاش الرجل لحظات أربكته وجعلته يبحث عن مخرج مناسب حتى لا يتسرع بالرد، فقال:

- ولدي لقد فاجأني طلبك كثيرًا، فأعطني وقتًا أتدبَّر الأمر.

- لك ما تشاء عمّاه، أنا بانتظار ردك، أرجو ألا يتأخر، لأنني أود أن آخذ إجازة لرؤية أهلي. أما الآن فاسمح لي بالانصراف كي تستريح.

- كما تريد.

ودّع عبدالله الرجل، وقفل راجعًا إلى غرفته، وبدأ يستعرض تصرفاته وما سيترتب من تبعات عليها إن رُفض طلبه. فتهافتت عليه أسئلة: إن رفض طلبك ياولد، أيمكنك أن تبقى في سكنك؟ كيف لك أن تقابل وجوههم يوميًا في ذهابك وإيابك؟ أيبدؤون بالحذر منك؟ هل سيشكّون بكل تصرف تقوم به ويفسرونه على هواهم؟ أيمكن لأهل البيت أن يأمنوا على بناهم وحدهن بوجودك؟...

تلك الأسئلة أرّقته وزادت من همّه، وأضاف لها أسئلة تتعلق بأسرته في القرية وعاداتها :كيف له أن يقنع أباه بالموافقة على زواجه قبل أخيه الأكبر، فالعادات في القرية تقضي بزواج الأكبر أولاً بنتًا أو ذكرًا؟ من أين سيأتي بالمهر ومصاريف العرس؟ فأبوه لا مال لديه، والأرض المتبقية ليس سهلاً بيعها، فأخوه يعمل فيها وتسهم في جزء من مصاريفهم.

جلس على سريره منهكًا تتقاذفه هذه التساؤلات يمينًا وشمالاً حتى خشي ألا يأتيه النوم الذي عانده فترة، لكنه استسلم له أخيرًا، ولم يستيقظ إلا على قرع خفيف على الباب لإحدى الصبايا تحمل له رغيفين ساخنين وإبريقًا من الحليب الطازج. صبّحته وقالت: تفضّل جارنا، هذا ما أرسلته لك أمي.

أخذ منها الصينية من دون أن ينظر إلى وجهها، وقال: بلغي خالتي شكري وتقديري وأرجو ألا تغلّب نفسها.

ذهب عبدالله إلى عمله قاصدا المرآب، أخذ السيارة ثم توجّه إلى بيت قائده ليحمله إلى مكتبه، ولما وصلا دخل المعلم إلى المكتب، بينما جلس عبدالله في غرفة مجاورة ينتظر أوامره، وإذ بالحاجب يقول: المعلم يطلبك.

توجّه عبدالله إلى مكتب المعلم. قرع الباب ثم حيّا المعلم وأردف: حاضر سيدي.

فقال المعلم: أوصل البريد إلى دمشق، وسلمه لرئيس ديوان الشعبة باليد لا لغيره.

تناول البريد بحافظته، ثم حيّاه هامًّا بالخروج، فلمح رئيس المكتب تردّده فناداه: عبدالله، أراك مترددًا هل من شيء؟... تجرّأ عبدالله، وقال: سيدي أتسمح لي بعد إيصال البريد أن أمرّ على أهلي في القرية للاطمئنان؟ فمنذ التحاقي بالمكتب لم أعرف شيئًا عنهم.

أجابه: اذهب، فأنت تستحق.

- شكرًا جزيلا سيدي.

توجّه إلى السيارة فرحًا بزيارة أهله. شغَّل محركها منطلقًا بسرعة لأداء مهمته، ثم التفرغ لأهله فيما يتبقى من اليوم. فلما وصل الشعبة في دمشق سلّم الأمانة حسب التعليمات، ثم عرّج على مسؤول البريد لتسلُّم بريد مكتبهم. وقفل قاصدًا قريته، ليسرّ أمه بمشروعه المستقبلي، آملاً منها المساعدة على إقناع أبيه بزواجه.

تصادف وصوله إلى القرية مع خروج المصلين من المسجد، فلمح أباه من مسافة ينفرد عن مجموعة المصلين. اتجه نحوه بهدوء ثم أطلق العنان لمنبه السيارة ليلفت نظره. استغرب المختار هذا الزعيق، فنظر وراءه فتفاجأ بالسيارة تتوقف بمحاذاته ويترجّل سائقها. دقّق بالمترجل غير مصدِّق ما تراه عيناه... إنه عبدالله. خفق قلبه فرحًا، وامتلأ فمه بالذكر: ما أكرمك يا الله! ما أحسن عطاءاتك!.

أسرع عبدالله إليه مختطفًا يده ولثمها، بينما احتضنه المختار بحرارة. أمسك عبدالله يد أبيه، وفتح بالأخرى باب السيارة قائلاً: تفضل مختاري الكريم.

أركبه السيارة، وتابعا طريقهما إلى البيت. أحبّ الأب ألا يفاجئ زوجته المتشوقة لرؤية ابنها، فنَزل من السيارة، ودخل، بينما عبدالله انشغل بركنها على جانب الطريق. نظر إلى داخل الدار فلمح أمه تمسح يديها بمملوكها (قطعة من القماش مزخرفة تضعها المرأة للزينة فوق فستانها، أو لإبعاد الماء عنه إن كانت تغسل الأواني). أقبل إليها مسرعًا، وأخذ بيديها يقبلهما، وهي تشمّه وتقبله وتضمّه كأنها لم تره منذ سنوات.

دخل الجميع إلى غرفة داخلية في الدار، فأخبرهما أن لديه سويعات للاطمئنان عليهم، ثم سيغادر إلى عمله بارًّا بوعده رئيسه.

قص عبدالله على أبيه ما جرى معه في الفترة السابقة مختصرًا، ووعده أن يحدثه بالتفصيل مستقبلاً عن كل ما حصل له وقال: أما الآن فهات ما عندك يا أبتاه، فأنا متشوق إلى حديثك ولمعرفة أوضاعكم في القرية التي أوحشتني سهولها وصيدها.

بدأ الأب حديثه بتأثر القرية بشح المياه، وانعكاسه على المزروعات ، وكثرة القلاقل التي تحصل بين الفلاحين في الحقول. في حين هرعت أمه لتطهو له الطعام الذي يحبّه قبل مغادرته ولسانها يقول : أكيد أنت جائع ، لحظات يا عمري ويكون الأكل جاهزًا.

دخلت مملكتها وشرعت تعد له طعامه المفضل ولّما أنهته جاءت لتقول : حبايبي ، الطعام جاهز. وعقّبت : أيصح يا روحي ألا تفكر بأمك؟ لقد طالت غيبتك. ألم تشتق لأمك؟

- أمي أتسمحين لقلبك أن يقول هذا؟ أتشكّين في حبي وشوقي لكم؟

ضحكت وقالت :

- "بقولوا يا ولدي، من طوّل الغيبات جاب الغنايم".

- حقك ميمتي أن تقولي ما تشائين ، انتظري لك عندي حديث خاص قبل أن أغادر ، فيه من الغنايم ما تشتهين.

– عجيب أتود المغادرة بهذه السرعة وما ملأت عيني منك؟

– بإذن الله سآتيك بإجازة طويلة بعد أيام، وستملين مني.

– هل من عاقل يمل روحه يا روحي؟ بعون الله تأتينا عما قريب، أما الآن فتفضّلا قبل أن يبرد الطعام.

قام عبدالله مسرعا إلى السفرة وبدأ يأكل من طعام أمه الشهي، شاكرًا لها صنيعها، وضارعًا لله ألّا يحرمه كرمها وذوقها، فمنذ زمن خلا لم يتذوق طعامًا بهذه النكهة.

قطع كلامه طرق الحاجب للباب ليخبر الشيخ أن شابًا ينتظره في المضافة ليمهر له ورقة يثبّت بها ميلاد مولوده الجديد.

انفرد عبدالله بأمّه، وأسرّ لها بطلب يد ابنة جيرانه. سمعت الأم الخبر مدهوشة مستغربة أن يحصل هذا منه من دون استشارتها واستشارة أبيه، وأن يطلب يد فتاة دون

علمهما. برّر عبدالله ذلك بضيق الوقت ، وتعذّر الحصول على إجازة يأتيهما بها ، فلولا سماح معلمه له بسويعات لما تمكّن من المجيء. كما أن البنت مهذبة ، وأهلها محترمون ، فإن تأخر فقد يتقدم لها غيره. وأردف :

– لي عندك طلب لا يقدر عليه بعد الله سواك ، أتعلمين ما هو أماه؟

– قل يا ولدي علّي أخفف عنك.

– طلبي منك يا حبي الذي لا يوازيه حب في الدنيا أن تخبري أبي بعد مغادرتي بموضوعي ، وحاولي ما استطعت إقناعه بالموافقة على زواجي قبل أخي الأكبر ، فحنكتك ، وحبه لك ، والعشرة الطويلة بينكما ستحصد لي الموافقة بإذن الله.

– اسكت يا ولد نحن كبرنا على كلام الحب الذي تعرفونه أنتم هذه الأيام.

لم يكن يتوقع عبدالله أن تقف أمه عند كلمته العابرة عن الحب ، فقد لمس من ردها العفوي والسريع على عبارة الحب أن دور الحب كبير للغاية بين المتحابين ، وإن كانوا كبارًا في السن ، فهم يحبون سماعها بين الفينة والأخرى. فشعر أن الكلمة شحنت مشاعر أمه من جديد وزوّدتها بالثقة أنها ما زالت مرغوبة ومحبوبة وفي دائرة الاهتمام، وإن كبر ولداها، فالحب أساس الحياة لا جدال في هذا. فقال لها بملء الفم:

- أماه، تأكدي أنني لا أقول إلا الحق، فمن عرفوك من خارج بيتنا أحبوك، فكيف بأبي الذي يعيش معك دومًا؟ أنا ألمس ذلك في عينيه ، وهو ينظر إليك ويتابع حركاتك في المنْزل ، ولتتأكدي من صدقي أكثر ارجعي قليلاً إلى الوراء وتذكري ما فعل وقت مرضك ، وهو مختار القرية. كيف كان يعد لك الطعام ويقدمه بنفسه ولا يرضى منا أن نقدمه نحن؟

هزت رأسها وقالت:

– إذن أنت تراقبنا.

– لا أبدًا ، لكن هذا ملموس ، فيبدو لي أن جذوة حبكما ما زالت متقدة.

– قل ماذا تريد، وخلصني من سوالفك هذه؟

– هه هه.. ما أجمل سوالفي هذه! أماه إنها تذكرك بالشباب والماضي وما فيه يا ست الكل...

– يا ولدي ، لم يكن يجري وقتها ما يحصل اليوم ، في زمننا يأتي أهل الخاطب إلى الأب من القرية أو خارجها ، فإن كانوا ذوي سمعة حسنة وافق على ولدهم... ولا يكلف نفسه عناء سؤال بنت ولا أم ، بل تسمعان الخبر لدى قوله لأهل المنْزل بشكل عام : جاءني بيت فلان لخطبة (....) فتوكلت على الله وأعطيتهم إن كان لهم نصيب.

– أكنتن ترضين بهذا؟ !

هزت رأسها وقالت :

– ماذا ستفعل الأم أو البنت فالكلمة الأولى والأخيرة للأب وما يقوله سينفذ من دون أدنى اعتراض ؟ يا حرة قلبي ، كم من فرق بين زمننا وزمنكم يا ولدي ، فاليوم البنت تستشار وتتغنج ، وتحب وترفض وما شابه ذلك... روح ربي يرضى عنك.

– أماه ، لقد أحسنتِ كثيرًا ، فإكثارك من الدعاء لولدك عبدالله ، وعلاقتك الطيبة بأبي كفيلان بعون الله تعالى أن يقنعاه بزواجي قبل فيصل. فأخي ، أماه ، يعيش بينكما ، وأنتِ – أمد الله في عمرك – تكفينه حاجاته البيتية كلها ، أما أنا ، يا حسرتي ، أعيش بعيدًا عنكم ، ولا أجيد عملاً من أعمال المنْزل الأساسية للحياة ، فالزوجة ستخفّف عني كثيرًا ، كما أن فراغي محدود ويضيق عن تدبير تلك الحاجات بنفسي...

اختلس عبدالله نظرة إلى ساعته وقال :

– أماه لقد تأخرتُ ، فالآن اسمحي لي أن أستودعك الله.

ثم أمسك يدها وقبّلها مرات ، فأخذته هي في حضنها كما لو أنه ما زال صغيرًا، ما حرك مشاعره فتماسك أمامها حتى لا يبكيها ، وهرب منها إلى أبيه. ودَّعه مقبّلاً يديه ورأسه، وانتقل إلى أخيه الذي وصل توًا من الحقل، فعانقه بحرارة ، واعتذر منه واعدًا أن يعوضه مجالسته في وقت آخر.

غادر قريته مساءً بعد إن اطمأن على أهله ، واتجه إلى القنيطرة محملاً بجزء من مؤونة أمه التي طلبت منه أن يقسمها بينه وبين جيرانه، تاركًا لها مهمة جني موافقة والده على زواجه وإلا سينهار مشروعه.

هذا الهاجس شغله خلال الطريق، فلم يشعر بنفسه إلا قريبًا من المكتب. أوقف سيارته أمام البناء ثم دخل، فلم يجد سوى الحاجب الذي أبلغه أن معلمه خرج برفقة فريق من الأركان في مهمة لاستطلاع الجبهة المقابلة لفلسطين المحتلة. بقي منتظرا عودته حتى يسلّمه البريد ، ولما عاد رئيس المكتب دخل عليه وحيّاه، ثم قدّم له البريد... فتح

الرجل البريد وقلّب أوراقه بسرعة آخذًا بعضها وطلب إلى عبدالله إيصاله إلى بيته. طيلة الطريق كان الرجل مشغولاً بتلك الأوراق يقلّبها بين يديه، فلما وصل بيته ترجّل من السيارة وطلب إليه أن يأتيه غدًا مبكرًا.

أجابه: أمرك سيدي.

حياه والألم يعمر قلبه، فالقائد لم يسأله عن أهله الذين ذهب للاطمئنان عليهم.

أدار مقود السيارة متوجهًا إلى بيته فلم يدرِ كيف وصل؟ أوقف السيارة ثم طرق الباب خفيفًا كعادته. سمع صوت إحدى الصبايا تقول: من الطارق؟ فقال: أنا جاركم عبدالله يا أخيّتي.

فتحت له، وهي تبتسم في وجهه. سلّم عليها ثم أعطاها القسم الأكبر مما حمله من أهله.

دخل غرفته، وأخذ يفكر بسر ابتسامة الفتاة لدى استقباله قائلاً: أسمعت حديث أبيها وأمها عن طلبي أختها،

أم سؤاله أختها لأخذ رأيها؟ لا... لا.. ربما تكون استغربت طلبي بهذه السرعة يد أختها.

بمثل تلك الأسئلة انشغل عبدالله ، لكن إيمانه وثقته بنفسه، والجو العام غلب لديه فسحة الأمل بأن يُقبل طلبه في نهاية المطاف.

خرج عبدالله مبكرا ليقلّ رئيس المكتب بالسيارة إلى الجبهة وينقلّه من كتيبة إلى أخرى حتى يبلغ الرجل قادة الكتائب مهامهم التي كلفوا بها شفويا لسريتهًا. امتد عمله مع سيده حتى وقت متأخر من الليل لم ينل خلاله الراحة البتة ، فما أن وصل غرفته حتى خلع ملابسه ، وتوضأ وصلّى، ثم سلّم جسده المنهك للسرير.

في الجانب الآخر للدار كان الرجل قد استشار امرأته، وصهره ابن أخيه، وأخاه، فالرجلان يعرفان عبدالله معرفة وإن كانت محدودة، لكنها مفيدة في كشف جزء من حقيقة عبدالله وسلوكه، فأثنيا على خلق الشاب وسلوكه، وباركا ذلك.

وجاء رأي الأم أكثر وضوحًا فقد عايشت تصرفات عبدالله عن قُرب فلمست منها كل أدب واحترام وأمانة، كما عزّزت رأيها بالموافقة بقولها : إن ابنتها تجاوزت سن العشرين عامًا، وقد لا يأتيها عريس من عرقها، فالأفضل تيسير أمرها، ما دام الشاب ذا خلق حميد ويعمل قريبًا منا، فلن تتغيّر البيئة على البنت.

عاش عبدالله أيامه اللاحقة مرتبكًا يخشى رفض طلبه، ويفكِّر بما سيرتب عليه الرفض، فيحادث نفسه :يا ترى إن رُفض طلبي هل أملك جرأة النظر إلى أعينهم ؟ كيف سيتعاملون معي وأتعامل معهم ؟ ألا ينبغي علي أن أغيِّر مسكني حتى أتحاشى الإحراج. إن كل ما بنيته وحلمت به سينتهي بكلمة يقولها لي صاحب البيت (أعذرني) وقتها سأفقد ما أحاطوه بي من رعاية واهتمام.

تابع الليل والنهار تعاقبهما وعبدالله كعادته يخرج صباحًا ويعود ليلاً، إلا إنه يتقصد غياب أطول فترة عن البيت ليتحاشى رؤية أحدهم. وبدأ يشعر كلما تأخر الرد على

طلبه أن أمرًا إيجابيًا سيحصل يبرره بقوله : لو رُفض طلبي لبلغني الرجل في اليوم التالي ، ها نحن في منتصف الأسبوع الثاني ، ومضى على عودتي من زيارة أهلي عدة أيام. إن عدم رده على طلبي زاد معاناتي ، وجعلني أرقًا بالكاد أنام ، فإن نمت فلا طعم للنوم. هل كُتب علي الشقاء لأعيش مشتت الفكر بين نجاح والدتي في إقناع أبي بالموافقة على زواجي قبل أخي ، وموافقة أهل العروس التي طال انتظاري لها ؟

بقي عبدالله أياما أُخر ينتظر أن يأتيه الخبر اليقين حتى يتدبر أمره سلبًا أو إيجابًا ، لأن أمورًا كثيرة ستتغير في مجرى حياته المستقبلية بعد تبلغه الرد.

في مساء اليوم الخامس عشر لرحلة انتظاره عبدالله المتعبة نفسيًا شاء الله أن يضع حدًا فيجلي له الأمر. إذ صرفه رئيسه قبل وقت من الانصراف اليومي لكي يأخذ قسطًا من الرحة ، وليأتيه في اليوم التالي مبكرًا ليقلّه إلى دمشق. رجع عبدالله إلى البيت على غير العادة فلمحه وهو

يدخل رب الأسرة، فناداه: ولدي بعد أن ترتاح تعال إلي. بمجرد رؤية عبدالله للرجل زاد اضطرابه وخشي أن يظهر الارتباك على محياه، فحاول التماسك متسائلاً: ما كتبه الله سيحصل فلمَ الخوف؟

تشجع وجأر لله أن يقدّم له الخير ويهديه إليه. لم يطل انتظاره كثيرًا، بل توجه إلى غرفة الرجل. طرق بابها. فتح الرجل واستقبله باشًّا بوجهه، فتبادلا التحية. أخذ الرجل بيد عبدالله وسارا معًا حتى أوصله صدر الغرفة. جلس عبدالله مرتبكًا بالكاد يمسك نفسه.

بدأ الرجل يسأله عن أهله في القرية وعن المواسم عندهم. كما شكر لأهل عبدالله صنيعهم... هذه الدردشة بدّدت من مخاوف العريس، وأعادت له بعض الثقة بالنفس، فاستشعر أن السؤال عن الأهل والمواسم لم يكن ليطرحه الرجل لولا موافقته على طلبه، فغدا يتنظرها بفارغ الصبر الذي لم يطل كثيرًا، فالرجل أطرى أخلاقه وشهامته، وبلّغه موافقته وموافقة الأم على طلبه. لم يكد يصدق عبدالله ما

سمع، فهمَّ ليقبِّل يد الرجل الذي كفَّها عنه، بل طلب منه أن يدعو أهله للمجيء حتى يكون الطلب رسميًا على الملأ.

هذا الكلام غمر عبدالله سعادة، فقد طال انتظاره، وبه سقط عن كاهله حمل ثقيل كاد يربك حياته كلها، ويفقده ما كوّنه من ألفةٍ ومحبةٍ مع جيرانه الذين أعجب بهم وبمعاملتهم فأحبهم وأراد التقرب إليهم.

في اليوم التالي طلب إجازة من رئيسه الذي وافق على أن تبدأ بعد أسبوعين. تألّم عبدالله من تأخيرها، فأسبوعان مدة طويلة. فقال في نفسه: رب ضارة نافعة فخلالهما سأتدبر أمري علّي أهتدي إلى طريقة تمكنني من تدبير بقية المهر ومصاريف العرس، وأعطي بهما أمي فرصة حتى تقنع والدي بزواجي. صمت برهة وقال بحيرة: من أين لي بقية المهر والمصاريف؟ فأبي لا مال عنده، وهو يبيع أرضه جزءًا إثر جزء ليسدد مصاريفه اليومية...

سرح ذهنه فاستذكر كيف يتصرف زملاؤه في العمل، فأحدهم إذا احتاج مالاً لجأ إلى الآخرين وشكّل معهم

جمعية، فلمَ لا يفعل ذلك؟ فكرة حسنة. تداول الفكرة مع المقربين منه فنالت موافقتهم، ثم رجاهم أن يقدروا وضعه ويجعلوه أولاً إسهامًا منهم في مساعدته.

سُرَّ عبدالله كثيرًا واستشعر أن الأمور تسير مواتية له. فغدا تواقًا لمعرفة رأي أبيه، منتظرًا موعد إجازته ليزيح عن كاهله هذا العبء الثقيل، فإطاعة والده واجبة. قضى تلك الفترة في أرق يخشى ألا يوافق أبوه فينهار كل ما بناه.

أخيرا تسلّم عبدالله إجازته وغادر متوجهًا إلى بلدته بعد أن اتفق مع جيرانه على المجيء بأهله في أقرب وقت لاستكمال خطوات الزواج. كان همّه الأول أن تكون أمه قد حصدت موافقة أبيه على زواجه. فلما دخل الدار كان أبوه أول من استقبله، فشعر عبدالله بحرج شديد منعه من أن يملأ عينيه من وجه أبيه، لكن أباه بطبيعته المتفائلة، وحبّه له وفّر عليه الكثير من التساؤلات، وبدّد مخاوفه بقوله: مبارك يا ولدي مسعاك.

وقع الكلام في نفسه موقعًا حسنًا حتى إنّ أمه تفاجأت بسماعه ، فالأب لم يعطها رأيه من قبل على الرغم من إصرارها ، فيرد عليها دومًا : دعيني أتدبّر الأمر. ليتبين لها أنه أخفاه ليكون مفاجأة ، وليوصل إلى عبدالله مقدار الحب الذي يعمر قلبه له. فمجرد سماع عبدالله مباركة أبيه اندفع إلى يديه يقبّلهما ويدعو له بطول العمر.

كانت الأم تنظر مستغربة. لم يسبق أن أخفى عنها زوجها أمرًا من قبل باعتبارها مستشارة له في أمور البيت والأسرة ، لكن حنانها وحبها لعبدالله خفف معاناتها. ولاسيما إقبال عبدالله إليها بوجهه الباسم فأخذته في حضنها وضمّته إلى صدرها ليذهبا معًا في ثوان من تشابك المشاعر وتماهيها ، فكلاهما محب للآخر.

سمعها تقول بصوت متهدج : مبارك عليك يا ولدي ، العقبى أن نحتفل بأولادك.

وانهمرت الدموع من عينيها بهدوء. فلمحها الأب ، فقال : ما لك يا امرأة لم أرك من قبل بهذه الحال؟

فردّت : هذه دموع الفرح بأنني بعد فترة سأكون جدّة ولي حفيد بإذن الله.

لم يطل الحديث بينهم في صحن الدار ، فدخلوا إلى غرفة داخلية وراحوا يخططون لقادم الأيام ، من ذهاب لخطبة الفتاة ، ومن ثم تدبير متطلبات الزواج ، وأخذ السماح من فيصل فهو الأكبر والأولى حسب عُرف القرية.

تمكن المختار من انتزاع موافقة فيصل على زواج أخيه وشرع يكوِّن وافدًا ليذهب معه إلى خطبة البنت ، كما هيّأ متطلبات الخطبة مع زوجه ، ولما تأكد من استكمال كل شيء غادر مع زوجته برفقة الوفد إلى القنيطرة لإتمام الخطبة رسميًا.

تمت الخطوبة بسهولة من دون أي تعقيد ، ليشرع الجميع يعدُّ العدة للزواج ، والذي لم يتأخر ، حيث احتفل بالعروسين الشابين في حفل بهيج في قرية عبدالله حضره وجهاء القرى المجاورة وصديقهم قائد الكتيبة الذي أحيل

على التقاعد، وقائم مقام المنطقة، كما باركه شيخه ومعلمه في الكتاب.

كان زواج عبدالله سببا في توطّيد العلاقة بين الأسرتين وتوابعهما من عرقين مختلفين، كما كشف عن حجم التآلف بينهما ، فكأن الأسرتين تعرفان بعضهما بعضًا منذ زمن بعيد.

تابع عبدالله عمله بإخلاص ، مثبتًا جدارة مكّنته من انتزاع ثقة لا حدود لها من قائده الذي أوكل إليه عدة مهام إضافة إلى إيصال البريد والعودة به من الشعبة وإليها ، فكثرت سفاراته إلى دمشق وأصبحت شبه يومية ، ما زاد من دخله الشهري الذي ساعده على تسديد دينه ومساعدة أهله وأهلها أحيانًا.

فذات يوم طلب إلى قائده أن يسمح له بالمرور على قريتهم كل فترة إذا عاد مبكرًا من مهمته للاطمئنان على أبويه كبيري السن لساعات ، فوافق القائد. هذا السماح جعله يصطحب زوجته أحيانًا إلى أهله ، فتوطدت علاقتها

معهم حتى شملت جيرانهم في القرية ، فعايشت عاداتهم وتقاليدهم عن قُرب ، ما زاد في مساحة السعادة بحياتها الزوجية ، وشجعها على بناء أسرة مطمئنة زاد من عُراها كرم أهله لأهلها ، حتى جيرانهم نالهم جزء من خيرات الله التي حباها منطقتهم دون غيرها ، لتنسج بين المتهادين علاقة تواصل توطدت مع الزمن وشجعت على تبادل الزيارات حتى المصاهرة ولو على نطاق ضيق. فلم يعد عبدالله منفردًا بمصاهرة هؤلاء بل شاركه غير واحد من قريته.

عاد يومًا من عمله فوجد زوجته طريحة الفراش. تألّم لحالها ، لكن ألمها زاد وامتدت فترته ما اضطره إلى الذهاب بها إلى المشفى العسكري. ولمّا عاين الطبيب حالتها وجدها تعاني من أعراض الحمل. فرح عبدالله كثيرًا بما قاله الطبيب، وشكر لربه هذه النعمة والمنّة. صرف لها الدواء ، وعادا إلى المنْزل سعيدين بما سمعا.

لم يخبر عبدالله أحدًا بانتظار ثبات الحمل. وكلما مرَّ يوم على حملها زادت آلامها ، فانعكس ذلك على عبدالله نفسيًا

فهو للمرة الأولى يخوض هذه التجربة المحببة رغم ألمها. كان يأمل أن يستقر حملها وتتلاشى آلامها، مؤملاً اليوم الذي تناديه قائلة: إن آلامها هذه المرة أقوى بكثير فيكون إنذارًا بالوضع.

لم يطل هذا الانتظار كثيرًا، فالأيام تمر سريعة في نظر من يعمل جُلَّ وقته، فسمعها تناديه ثانية ليحملها إلى المستشفى حيث وضعت وليدها الأول، فسمَّاه على اسم أبيه.

كان ذلك اليوم مشهودًا في حياة عبدالله. كم تمنى أن يكون بين أهله ليشاركوه فرحته مع أهلها وجيرانهم الذين لم يقصّروا في خدماتهم.

مضى على وضع زوجته أكثر من أسبوع فسنحت له الفرصة أن يمر على قريته، فأخبر أهله بأن زوجته وضعت طفلاً، فوقع الخبر عليهم موقعًا حسنًا وفرحوا فرحًا عظيمًا جعل الجد يخصص لحفيده عجلاً معيّنًا من بين ماشيته متعهدًا تربيته حتى يكبر ليبيعه ثم ينقده ثمنه. كما طلب إليه أن يأتي

بهما ليسعدوا بهما ، فوعدهما أن يسعى للحصول على إجازته الدورية بأقرب وقت.

عاد إلى القنيطرة منتظرًا موافقة قائده على إجازته الدورية ، فمن سوء الحظ وقعت في غيابه أحداث مؤلمة في القرية وما جاورها عكّرت صفو حياة أهله ، وأذهبت فرحتهم بالمولود الجديد ، حتى إنها شغلت باله منذ بلغه خبرها ، فأرّقته ولم يعد قادرًا على الصبر ، فرجا قائده أن يسمح له بالمرور على القرية لاستجلاء الوضع. فسمح له المعلم أن يمر غدًا بعد تسليم البريد إلى الشعبة في طريق عودته ليعرف تفاصيل ما حدث علّه يخفف من معاناته.

غادر القنيطرة في اليوم التالي مبكرًا من دون إخبار زوجته بالحدث. سلّم البريد لرئيس الديوان ثم استلم بريدهم ، وفي طريق عودته عرج على القرية ، فلما اقترب منها لمح دورية شرطة تمشط الطريق ذهابًا وإيابًا ، كما واجهه حاجز في مدخل القرية يتأكد من ثبوتيات القادمين لها. هذه المظاهر أوحت بعمق الأزمة بين القريتين.

تجاوز الحاجز ووصل بيتهم ، حيث استقبله أبوه وأمه فرحين كعادهما ، محاولين كتمان الحدث ، لكنه فاجأهما ، فسُقط في يد أبيه ولم يستطع إخفاء ما وقع في السهل بعد إصرار عبدالله على معرفة كل التفصيلات ، عساه يساعد أباه على كيفية التصرف كمسؤول في القرية.

شرع الأب يقص حيثيات الحدث بدءًا بالخلاف البسيط الذي وقع بين بعض فلاحي قريتهم وجيراهم من القرية المجاورة حول حصص مياه النهر التي شحّت هذا العام، ولما تكرَّر الخلاف ألَّب النفوس ، وغرس فيها الحقد والضغينة وبخاصة وقوعه من نفس الأشخاص ، فنمت الكراهية المقيتة وأصبح بمجرد أن يلتقي أحدهم بالآخر تتغير قسمات الوجوه ، ويفتح الباب على مصراعيه لدخول الشيطان مستغلاً الشحناء السابقة التي تصب جام غضبها في قلبيهما فما أن ينظر أحدهما إلى الآخر يغدو في داخله مرجل يغلي حقدًا. فكانت القشة التي قصمت ظهر البعير بان اتّهم أحد فلاحي القرية المجاورة فلاحًا من قريتنا بأنه حوّل إلى أرضه

جزءًا أكبر من حقه من الماء. هذا الكلام أجّج غضب ابن قريتنا فقال: خسئت، إنك تتهمني بعدم الأمانة. هذا بهتان باطل كوجهك الكالح. ردّ الثاني عليه بأسلوب وضيع أسوأ مما قاله الأول، وتوالت الاتهامات بينهما حتى تجاوزت التلاسن، ووصلت إلى الشجار بالأيدي، فتعالت الأصوات التي استقطبت أناسًا من كلا الطرفين، فناصر كلٌّ ابن ضيعته، لكنّ تدخل العقلاء في عين المكان أوقف المشاجرة قبل أن يحصل ما لا تحمد عقباه. هذا الحدث أسس لما بعده ومهّد لأرضية مناسبة لنماء الحقد والكراهية والضغينة التي سرعان ما تسللت واتكأت مرتاحة لتنمو يومًا بعد آخر في النفوس مؤلبة الكثيرين. فأصبحت كنار خامدة يغطيها رماد لا تحتاج إلا هبّة ريح حتى تتأجج. فإذا مرّ يوم علينا بلا مناكفة بين فلاحي القريتين حمدنا الله مرات ومرات، آملين أن تهدأ النفوس، إلى أن جاء الخطب الجلل في ذلك اليوم المشؤوم الذي حمل حدثًا أسوأ من سابقه، حيث استفرد فلاحونا براعٍ كانت ترعى أبقاره في الوادي إثر خلاف

نشب بينه وبينهم بعدما دخلت إحدى البقرات خلسة إلى البستان المطل، وأخذت تعبث في مزروعات البستان مخلفة الأضرار، والراعي لاهٍ عنها. لمحها أحد الجيران، فجاء إلى الراعي مسرعًا، مؤنبًا وموبخًا، ما أثار حفيظته، فردَّ بأسلوب مماثل، ليتطور التلاسن إلى تبادل السباب والشتم المقذع. اقتربا أكثر فأمسك كلاهما بتلابيب الآخر، وتعالت أصواتهما عبر المكان، فجاء الفلاحون القريبون من المكان، فلما تكاثروا خشيهم الراعي، وشرع يقذفهم بالحجارة، فأصابت حصوة متوسطة أحدهم إصابة بالغة أوقعته أرضًا ينْزف دمًا، ما أجَّج غضب الآخرين الذين لاحقوا الراعي الهارب حتى تمكّنوا منه، فأشبعوه ضربًا حتى سقط أرضًا فاقد الوعي... انصرف بعضهم واستمر الآخر في ضربه، ثم تركوه مطروحًا أرضًا يصارع سكرات الموت، ليصبح بعد دقائق جثة هامدة.

لم يمضِ وقت طويل على مجريات الحدث المؤلم حتى عرف به معظم الناس، ومنهم مديرية الناحية التي استنفرت

عناصر المخفر ، فجاؤوا ، وطوقوا مكان الحدث واكتشفوا أن الرجل فارق الحياة ، فأخبروا مدير الناحية الذي طلب منهم التحرز على المكان حتى إجراء اللازم ، ولتبقى أعينهم يقظة تراقب الوضع عن كثب بين القريتين حتى لا يخرج عن السيطرة ، وشكل دوريات لتجوب المنطقة كي تتلقف ردة فعل أهل القتيل. وللحد من المخاطر طلب الرجل المزيد من العناصر للإحاطة بقريتنا حتى تحول من دون مهاجمتها أخذًا للثأر.

وصل الطبيب الشرعي و كشف على الجثة ثم طلب نقلها إلى أحد المشافي القريبة لاستكمال الفحص الشامل لمعرفة سبب الوفاة وكتابة تقريره.

استشاط أهل القتيل غضبًا وثاروا وتوعدوا القتلة بالثأر، فاجتمع قسم منهم متوجهين إلينا ، لكن دوريات الشرطة التي تجوب المنطقة منعتهم وهددتهم بالاعتقال إن تكرر الأمر. ألم تلاحظ الحاجز أول القرية؟ فهو منذ بدء الحدث

يستقصي كل من يدخل القرية في حين تتابع الدوريات تجوّلها للاطمئنان؟

قال عبدالله:

- أمر جيد يا أبتي، فالحذر مطلوب حتى لا تتفاقم المأساة أكثر، فماذا أنتم فاعلون؟

- رغبنا في الذهاب إليهم كوجهاء لتقديم العزاء، فقوبلت رغبتنا بالرفض من أهل القتيل، فبم تفسر ذلك؟

- الظاهر أنهم يبيتون شرًّا، فلتأخذوا حذركم ما استطعتم.

- هذا تفسيري الأولي على الرغم من التفسيرات الأخرى...

- ماذا ستفعلون مستقبلاً؟

- تشاورت مع الوجهاء، واتفقنا على أن نعاود الكرة بعد فترة لعلهم يستقبلوننا.

- أبتاه، من الضروري أن تسلكوا كل طرق الصلح، فالصلح خير.

- حقًا، لن أترك بابًا للصلح إلا سأسلكه حتى أجنّب القرية ويلات حصلت من قبل، فقد روى لنا الآباء أحداثًا حصلت لهم وسببت حرق القرية ثأرًا لقتيل لم يتأكد أن قاتله من قريتنا. فكيف إذا كان القاتل معروفًا؟

- أعانك الله وقوّاك على حمل المهمة، واسمح لي بالمغادرة، لأنني في مهمة رسمية، فبريد المكتب معي وينبغي إيصاله للمدير قبل مغادرته العمل.

ودّع عبدالله والديه اللذين طلبا إليه أن يسلم لهما على أهله وبيت حميه، وألا يطيل الغياب، فوعدهما مجرد حصوله على إجازته سيأتيهم مع زوجه وابنه، كما تمنى لهم السلامة.

غادر القرية والشك يراوده بأن أهل القتيل يضمرون شرًّا، فالنار لديهم مازالت تحت الرماد، وصفوفهم تحتضن

من يؤجج العصبيات المقيتة ، ويرفض استقبال الوجهاء المعزين رغم بُعد القربى من الجناة ، وعلاقتهم الطيبة بوجهائهم.

حاول عبدالله البحث عن أسباب أخرى ، لم يجد سوى المصالح الآنية وحب الاصطياد في الماء العكر والاستقواء على الآخرين ، وتأجيج نيران الحقد والكراهية التي تربعت على عرش النفوس المريضة ، وشرعت تنمِّي مشاعر الثأر مكان الود والعيش المشترك والعشرة ، مستبدلة بحلو الأيام السالفة علقمًا ، حتى غدا كل فرد في كلتا القريتين يترصد الآخر خوفًا أو حبًا للثأر. هذه المشاعر تابعت نموها ودغدغت النفوس الحاقدة وزيّنت لأهل الفقيد أن ابنهم لن يرتاح في قبره إن لم يؤخذ بثأره. مقولة عفّى عليها الزمان ومحاها الدين الحنيف ومجّتها النفوس السوية ، لكنها شقّت طريقها متسللة إلى بعض أقارب القتيل الذين كتموا غيظهم وتدبيرهم المستقبلي ، وأبدوا صورة مخالفة لحقيقتهم خلال الدفن بأخذ العزاء من الجموع الغفيرة التي جاءت مواسية

آملة أن مشاركتها ستسهم في تسهيل الوصول للحل. كما لفت نظره تجميد فلاحي قريتهم لأعمالهم في الحقول التي تمّثل مصدر رزقهم الوحيد. فأخذ نفسًا عميقًا وقطّب حاجبيه وقال في سره: إن رفضكم يا أهل القتيل السماح لوفد الوجهاء بتقديم العزاء دليل على ما يعمر نفوسكم من حقد ترغبون في تفريغه بأهل قريتنا. ربنا، استرنا وكل بريء متضرر من بقاء الموتورين منقادين للعواطف الثائرة غير قادرين على رؤية أحد من قريتنا.

لم يتوقف أهل الخير عن مساعيهم لإصلاح ذات البين تفاديًا للأضرار الكبيرة التي ستلحق مصالح الناس من جراء الحدث. لهذا فكّر أهل الحل والعقد من الوجهاء في الجبل والمنطقة بحلّ وسط يمكّن الناس من متابعة أعمالهم. فارتأَوا أن يسوِّقوا لتهدئة بين القريتين يلتزم بموجبها كل طرف بعدم الاعتداء على الآخر لمدة ستة أشهر، فإذا فكّر أحدهم بنقضها قبل هذا التاريخ فعليه إبلاغ الضامنين بشكل علني. وبرَّر سُعاة التهدئة لها بتمكين القضاء من البت بأمر الجناة

وتحديد مرتكب الجريمة لينال القصاص ، وفتح أفق أمام الفلاحين من الطرفين ليراعوا حقوقهم مصدر أرزاقهم، كما أنها ستخفف من حدة الاحتقان لدى أهل المجني إن سلّم للشرطة كل من أسهم في الحدث.

اجتهد رُعاة التهدئة كثيرًا حتى تمكّنوا من كسب موافقة الطرفين عليها ليبدأ تنفيذها بعد أن رعاها مدير المنطقة ، ووجهاء الجبل والمنطقة.

بدأت التهدئة بين القريتين ، وبقيت عيون الشرطة والعقلاء من الطرفين حذرة تراقب الوضع عن كثب خشية وقوع مفاجآت من المغالين الرافضين لها. فحرصًا من وجهاء بيت جن على تفادي أي مخاطر قد تحصل ممن رفض التهدئة في قريتهم كلّفوا بعض الشباب العاقل ليكونوا عينًا عليهم وينقلوا لهم أخبارهم ، ويضعوهم في تصور ما يخططون ويدبرون أولاً فأولاً ، كما طلبوا من أصحاب الحقول المتاخمة لحقول الموتورين ألا يذهبوا في هذه الفترة إلا للضرورة القصوى، فإن كان لا بد من الذهاب فليكن في

جماعة تفاديًا لمزيد من التأزيم. ولتكن عيون الجميع يقظة كيلا تستغل التهدئة في مباغتة القرية.

لم يوقف الوسطاء مساعيهم الحميدة خلال فترة التهدئة، لكنها كانت تواجه بطلبات يصعب تنفيذها كأن قتل الراعي حصل عمدًا، فالمتعصبون المغالون كان صوتهم أعلى وأقوى، ما نمَّى الحقد والبغضاء وجعلهما يحجبان كل خير عن الأعين، فزادوا جرعات الكراهية وحب الانتقام لدى من يقف في المنطقة الرمادية، فانخفض بالمقابل صوت من ينادي بالتسامح والتصالح، ما ألحق الفشل الذريع بكل مسعى لإعادة الحياة إلى مجاريها السابقة، وضاعف العبء على العقلاء من الجانبين للحد من فرص هواة القتل والأخذ بالثأر الذي يولِّد الويل والثبور ومزيدًا من الخسائر، كما يرسّخ الكراهية والشقاق إلى فترة قد تمتد إلى أجيال.

فكّر العقلاء كثيرًا فلم يجدوا مخرجًا من هذا النفق المظلم إلا الرجوع إلى العقل وتغليبه على ما سواه، والجلوس إلى مائدة الصلح حتى يخمدوا حمّى البغضاء، وليضعوا حدًا

لعصا الثأر والثأر المضاد فتكف عن تسيارها ، وتصغي للعقل.

هذه المعاني السامية كانت ديدن كل زائر يسعى للصلح بين القريتين ، ويأمل من الجميع أن يقدموا مصلحة الناس على ما سواها ، فساقوا بعض التجارب والأحداث التي وقعت في المنطقة وغيرها من قبل وكُلِّلت بصُلح ، فالصلح خير.

كان المغالون يستغلون بعض الأخطاء البسيطة التي تراكمت ، فأحسن أصحاب النوايا السيئة توظيفها في كسب المؤيدين ، ما عقّد على الوجهاء مهمتهم ، وشكلت للطرف النقيض فرصة لكسب الشباب المتحمّس بحجج واهية كقولهم : يجب ألا نرضى بالذل والمهانة مهما كانت الظروف ، فإن سكتنا أكثر فسنفتح للخصم بابًا للتمادي ، فالأولى أن نضع حدًا له ، ولنقطع دابر من يستهين بنا لنريح الأجيال القادمة.

هذه التغذية للأغرار كانت تلاقي استحسانًا وقبولاً ، فيتجمعون حول من ينعق ليبث سموم الحقد والضغينة ، ويحرض على الأخذ بالثأر بخبث لئيم مبيّت ، فكان في الخفاء يسعى إلى تأمين السلاح لمن لا يملكه بحجة (الحاجة إليه وقت الضرورة للدفاع عن النفس) فإن شاهدك عدوك مسلحًا هابك.

مثل هذه الخزعبلات لم يفلح العقلاء في إبعادها عن فكر الشباب الجاهل ، إضافة للكثير من الأفكار الشيطانية التي شغلتهم ، فأصبح هذا الجاهل بالحياة رهن إشارة الصائد بالماء العكر ، لا يتصرف إلا بعد مشورته ، فيأخذ رأيه بكل صغيرة وكبيرة ، في ذهابه وإيابه ، متسلحًا بحجة الخوف من المباغتة ، فالحذر والحيطة مطلوبان كما قال أصحاب الفكر النير والحكمة. فقد ورد في المأثور : (قد أفلح من استشار) فالاستشارة واليقظة أحوط لنا وأفضل حتى نحسن التصرف إذا ما وقع ما نخشاه.

تابع ناعقو الثأر حث الهمم وكسب النصير وإغراءه بقول : أليس مجلسنا بأفضل من مجالسة الخوّارين القابلين بالمذلة.

لم يكتف الصقور من قريبي المجني عليه ومن لفّ لفّهم شحن النفوس ، فكوّنوا فريقًا لا يستهان بقوته ، وخرجوا متوارين في ليلة مشؤومة تحت جنح الظلام الكالح كوجوههم من سوء ما خططوا له ، مفجرين مفاجأة كبيرة للعقلاء في القريتين بمهاجمتهم منازل منفردة في حي يقطنه أفراد ممن حضر مقتل الراعي ، فأحرقوا بعضها ، وجرحوا من تصدّى لهم من أهلها المذعورين الذين تعالت أصواتهم طالبة النجدة والنصرة على المارقين.

هبَّ أهل القرية ملبّين ، وراحوا يتصدون للهجوم ، واستطاعوا إيقافه والحدّ من زخمه ، فتراجع الجبناء وولوا الأدبار أمام شباب القرية الذين لاحقوهم ، على رأسهم عبدالله الذي كان قد وصل القرية منذ يومين لقضاء إجازته بين أهله مع زوجه وابنه ، فلما سمع الأصوات تتعالى

مستغيثة حمل بندقية صيده وخرج مسرعًا نحو مصدر الصوت ليجد بعض الشباب يهمون بملاحقة المارقين الذين هابوا هذه الجموع فسلموا أرجلهم للريح وانطلقوا باتجاه الجبل. أصر عبدالله ومعه ثلة شباب على مطاردتهم عبر الجبل حتى اطمأنوا إلى ابتعادهم عن القرية ، ولكي يزرعوا في نفوسهم الخوف والهلع حتى لا يفكروا مستقبلاً في مهاجمة القرية ، ولإشعارهم بأنهم بفعل الشنيع قد انتهكوا حرمة المحرّم ؛ أنذرهم عبدالله بصوت مسموع : أيها الجبناء من نمسكه فدمه مهدور جريرة فعلكم الفظيع.

هذا الهجوم عزّز مقولة المتشددين والطابور الخامس الذين يعولون على الوقوف بحزم في وجه المنادين بالصلح والداعين لترك الشأن للدولة والقضاء ليأخذا مداهما ويفصلا بين الفريقين. فالهجوم عقّد مساعي الحل الذي يسعى إليه وجهاء المنطقة لنَزع فتيل فتنة قد تجر إلى أتونها أناسًا كثيرين بدعاوٍ واهية امتُطيت لزرع الشقاق والخلاف بين أبناء جبل الشيخ الذين عاشوا ردحًا من الزمن متآلفين

متعاضدين في دفع غوائل الضيم وكوارث الدهر. هذا التصرف الطائش وغيره زاد حياة الناس رعبًا وخوفًا أكثر من ذي قبل.

موقف عبدالله بإصراره على ملاحقة المهاجمين الفارّين ومن لفّ لفّه أعاد للأذهان سيرته على كل لسان في القرية وغيرها ، وأرجع لها بريقها ووهجها ثانية كيوم الاحتفال بتخرجه وحضوره في ميادين الفروسية والرماية حيث يتصدر المراتب الأولى ، فعبدالله فاق أقرانه في المنطقة من قبل ، وفي هذا الحدث تزعّم من تصدى للمهاجمين وطردهم ولاحقهم من دون أن يطلق عليهم رصاصة واحدة على الرغم من اصطحابه للسلاح ، فغدا مضرب المثل وسيد أحاديث الناس ، ما أغاظ الكثيرين في قرية الراعي القتيل ، كما أجَّج الضغينة في نفوس مطارَديه ، فشرعوا يترصدون له للفتك به في أقرب وقت ليمسحوا عارهم.

تحركت في نفسه قبل اليوم الأخير من إنهاء إجازته هواية الصيد التي لم يمارسها منذ التحاقه بالجيش فرغب في

إشباعها بالخروج إلى البراري للصيد ، فلمَّا علمت أمه برغبته حاولت ثنيه فلم تفلح. فقال لها : إن الحياة لن تتوقف لموت أحد مهما عظم شأنه ، وعلت مكانته ، فأنا أهوى الصيد وتعلقت به منذ الصغر ، ولدي رغبة في ممارسته.

تضرعت إليه راجية ، لكنه سبقها وخطف يدها وقال : أنتِ أغلى الغالين، اسمحي لي هذه المرة بالله عليك.

قلبها لم يقو على رفض طلبه فسمحت له. وعدها هي وزوجته بأن يأتي ببعض طيور الجبل لهما مساءً.

خرج وهو يشعر بضيق في صدره، فقال : لعل خروجي للصيد يخفف من معاناتي ويذهب عني كدري وضجري من هجوم المارقين على قريتي. أإلى هذا الحد وصلت جرأتهم في رمي كل الأعراف والتقاليد وراء ظهورهم ومهاجمة أبرياء آمنين في بيوتهم ؟ إن عملهم هذا انتهاك لكل المحرمات واستخفاف مهين بالقرية ومختارها.

سلك في طريقه الجانب الغربي للجبل المقابل لقريتهم متسلقًا فواصل الصخور الناتئة ، محاولاً التعمية والتواري عن عيون الخصوم ؛ لأنه يتوقع أنهم يرصدون حركاته بعد أن أغاظهم إثر ملاحقتهم ومناداتهم بـــ(أن يقفوا إن كانوا رجالاً حقًا). لم يجرؤ أحد منهم على تحديه بل بيَّتوا له المكر ليثأروا لكرامتهم التي مسحت بالأرض ، لذلك بيَّتوا له واشتروا من قريته أكثر من مارق باع نفسه بحفنة مال ليكون عينًا لهم عليه يراقب حركاته خلال مدة إجازته ، فشاء القدر أن يلمحه من باع نفسه وتخلى عن دينه وضميره وولائه لأرضٍ تربّى على خيراتها ، وعاشر أُناسًا شاركوه السراء والضراء ، فحاول إشفاء غليله من عبدالله ، فالمارق منذ طفولة يضمر الكراهية لعبدالله الذي تصدر أقرانه ، فترى عيون الاحترام والتقدير ترمقه ، بالمقابل كان هذا المارق مهملاً مُهانًا في الكُتَّاب أو اللعب مع الأطفال ، فلمَّا وصل مرحلة الصبا مرتديًا رداء الفشل ؛ لم يجد عملاً سوى رعي الماشية في البراري مقابل أجر يقتات به مع أهله.

أحبَّ هذا المرتزق أن يعالج عقده بإذلال عبدالله عن طريق الحمقى الخوارين في الخفاء، فهو كلما سمع سيرته تتكرَّر على الألسنة؛ امتعض واكفهر وجهه، كأن الشاب خلصه شيئًا بالقوة، فغدا شغله الشاغل أن يشوِّه سمعته. وأنى له أن يغطي الشمس بغربال؟

زاد حقده وغضبه بعدما انتشر بين الناس خبر ملاحقة عبدالله وصحبه للمارقين، ليشكِّل الحدث القشة التي قصمت ظهر البعير، فبمجرد أن عُرض عليه مراقبة تصرفات عبدالله؛ وافق واستحسن العمل الذي دغدغ مشاعره وهواه ورغبته المتقاطعة مع من ينوون الشر بعبدالله فعساهم يتمكنون منه ويذلونه على مرأى من الأشهاد فتتلاشى هذه الصورة الجميلة التي رُسمت في أذهانهم. لذلك لَّما لمح عبدالله يتسلق الجبل غربًا، أسرع هذا القميء إلى صلة الوصل بينه وبين زعيم المجموعة المارقة التي تود الثأر لنفسها من عبدالله فأخبره بالمكان الذي اتجه إليه عبدالله. شكر ابن القرية الخائن للعميل صنيعه، ووعده بعطاءٍ مجزٍ

بعد الانتهاء من المهمة التي ينتظرها أعداء عبدالله بفارغ الصبر ليمسحوا ما علق بهم من إهانة وخيبة. كان أملهم أن يقتصوا منه ويلمعوا صورتهم ويعيدوا لكرامتهم جزءًا مما افتقدته بعدما علَّم عليهم هو وصحبه على مرأى الجموع التي شهدت هجومهم، وهم من خطَّطوا للهجوم في جُنح الظلام وعلى حين غرة من الجميع ثأرًا لقتيلهم، فخاب سعيهم وفشلت خطتهم وهالتهم المفاجأة، فعادوا يجرّون وراءهم الخيبة والهوان، والعار يلاحقهم ما داموا أحياء.

وصلتهم الرسالة فخرجوا من قريتهم متخفين متفرقين كيلا يكشف أمرهم؛ إلى نقطة تجمع حدَّدها وسيطهم السرّي. هناك اتفقوا على خطة تقضي أن يتوزعوا في المكان لتمشيطه أُفقيًا، فإن لمح أحدهم عبدالله في منطقته بلغ جاره بمكانه، ليقوم هو الآخر بإبلاغ الثالث، وهكذا حتى يصل خبره إلى آخرهم ليجتمعوا من جديد.

انتشروا في المكان باحثين عن ضالتهم، فلما لمحهم أشقاهم من بعيد بلَّغ جاره، وهكذا، حتى بلغ الجميع.

أعادوا الاجتماع من جديد ، و قرروا السير باتجاه عبدالله مشكلين قوسًا يضيق كلما اقتربوا منه ، فإن انتبه لهم وحاول الفرار وجد نفسه شبه محاصر ، فتغدو مطاردته ميسورة. كان هدفهم من تصغير القوس الإمساك به حتى يشفوا غليلهم ممن علَّم عليهم ومرَّغ كرامتهم بالتراب ، لذلك بدأت أحلامهم تنسج ما سيفعلونه به من إذلال ، فأحدهم قال : سأقصُّ جانبًا من شاربه... أما آخر فقال : أنا سأكمل قص الجانب الثاني... والثالث كان أقساهم فقال : سأدوس على رقبته ورأسه.

غيروا طريقة سيرهم الأفقي وساروا بشكل دائري كالقوس هدفهم النقطة التي قصدها عبدالله للصيد ، وتواصوا الحذر حتى لا يهرب منهم.

لمح عبدالله من بعيد حركة أشخاص مريبة من غير جهة تتجه إليه فتوجس خيفة ، ولما اقتربوا منه وهم يسيرون بهذه الطريقة أيقن أنه المعني ، فهؤلاء جاءوه ليقتصوا منه... فكَّر بطريقة للخلاص فلم يهتدِ ، لأنهم قريبون منه ، فكلما

اقتربوا أكثر قلّت مناوراته في الدفاع، فكان أكثر ما يخشاه في مواجهتهم شبه المحتومة أن يقع أسيرًا بين أيديهم يقودونه مكبلاً أمام الملأ ذليلاً مهانًا حتى يعيدوا كرامتهم. ما كيدهم هذا إلا دليل رغبةٍ في الانتقام منه لما فعله بهم في يومهم المشؤوم، فتحرك بسرعة متواريًا بغير صخرة، حتى وصل إلى كهف من كهوف الجبل الوفي الذي بينه وبين عبدالله عهد طويل، فكم مرةٍ آب إليه وجالسه وأفضى له بسره، فلن يخذله أبدًا، فاتخذه درءًا له، فصداقتهما اليوم على المحك، فكم هي متينة وصادقة، فقد عمّدت بالأسرار التي ناجى عبدالله نفسه فيه وحفظها له.

كمن عبدالله في كنف حصن حصين لا يفرط بمن يلجأ إليه، وأخذ يراقب تصرفات هؤلاء بأم عينيه، معتمدًا على ميزة تسمح له برؤيتهم من دون أن يروه.

تابع المهاجمون سيرهم بحذر نحو مكان تواريه، ليصغر القوس كثيرًا، فصار أقلهم حظًا أقربهم إليه مسافةً عن باب الكهف، فتولّى مناداة عبدالله: سلّم نفسك تنج، فأنت

محاصر. جاءه جواب عبدالله : إن اقتربت أكثر فسأطلق النار عليك.

تابع الرجل سيره، فأطلق عبدالله رصاصة تحذيرية، لكن الرجل لم يرعو ، وتابع سيره البطيء مقتربًا أكثر ، فسدّد عبدالله بندقيته نحوه ثم سمح لإصبعه المتيقظة أن تضغط على الزناد ليندفع من فوهة البندقية الويل والثبور لمن استهان بحياض البطولة ومكر الرجال فأرداه استهتاره وتهوره أرضًا ينْزف دمًا مستنجدًا برفاقه.

هذه المفاجأة السريعة أشعلت نار الثأر في نفوس المهاجمين المترصدين شرًا بعبدالله، فحاولوا مساعدة زميلهم المصاب، فجروه جانبًا، بينما توجه شقي آخر نحو عبدالله وهو فاقد الرشد والوعي من الغضب ظانًا أنه الأقوى ، فناله من عبدالله ما نال الأول ، فسقط أرضًا كسابقه ، حيث استقرت الرصاصة في صدره ، فلم تسمح له إصابته أن يستنجد كما فعل سابقه، بل راح في غيبوبة.

هذان المشهدان السريعان لم يكونا بحُسبان المهاجمين الذين تأزموا كثيرًا ، واستشاطوا غضبًا لسقوط اثنين منهم جرحى ، فغدت نفوسهم تغلي متميزة من الغيظ كالمرجل المضطرب ضد الشبح المتواري في كهف الجبل الوفي الذي سيساعده بالتأكيد على دفع غلواء هؤلاء المارقين الذين جاؤوا متعمدين إيذاءه أو قتله.

توقفوا عن إطلاق النار لحظات حتى يسحبوا بها جريحيهم آملين أن يلمحوا هذا الشبح فيوجهوا إليه رصاصاتهم ، فأشجعهم لم يعد يجرؤ على التقدم أكثر مما فعل زميلاه خوفًا أن يلحق به ما أصابهما ، في المقابل ليس بإمكانهم أن ينتظروا أكثر خشية فشل خطتهم ، فقرروا إعطاء بنادقهم حقها في التعبير عمَّا وُجدت من أجله إثبات كفاءتها آملين أن تجبر رصاصة منها عبدالله على تغيير مكانه فينكشف لهم لينال جزاءه.

انطلقت حِمِم البنادق من كل حدب وصوب متجهة إلى مكمن البطل الهمام المتسلح بقلب صامد كالصخر الجلمود

لا يتزعزع مهما كانت جموع المهاجمين بعدما رسخ فيه رسوخ الجبال الشامخات أن الموت والرزق محدودان قد خُطّا منذ ميلاد المرء ، فساعته إن حانت ولو كان على فراشه آمنًا فستصيبه ، وتذكّر قول الله تعالى : {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ، لذلك سرح خياله ثانية فاسترجع هول هذا المشهد القرآني الرهيب العجيب وهو يتحدث عن موقف المؤمنين في غزوة أحد بعدما أثخنوا بالجراح ، لكن الوعي والذهن المتوقدين سرعان ما عاوداه ليأمر بندقيته بالرد استجابة للنداء الدامي الذي كانت تلفحه أحيانًا آثاره من

حرارة الرصاص الملتطم بالصخور القاسية من حوله فيرتد شرره في كل اتجاه ، لكن الله سلّمه ليكمل فصول هذه الترجيديا المؤثرة على تلك الجوقة التي عزفت على مسامع الجميع سيمفونية الموت الساعية إلى بثّ الخوف والتأثير في أعصاب البطل الصنديد غير الهيّاب لكل ما فعله مهاجموه الظانون بفعلهم هذا أنهم يبعثون الرعب في نفسه فيستسلم لهم ، وليحققوا هدفهم ، لكن الرياح هبّت عكس أشرعتهم لتخيّب ظنهم وتبدد كل أمل كانوا يتطلعون له من استسلامه لهم.

كان ردّه على سيمفونية نيرانهم بما تبقّى لديه من مؤونة بندقيته المتعاطفة معه والتي لم تبخل فقد كانت رهن أمره وبكل قوتها لتدفع الخطر عن فارسها وسيدها ، فسخاؤها أنفد ما بقي في جعبة فارسها الذي لم يخطر على باله في أي لحظة من حياته أنه سيقف هذا الموقف الخطير المرعب في مواجهة مجموعة مارقة لئيمة بقيت تطلق رصاصها نحو

الكهف على الرغم من توقف نيران خصمها المتمتع بحكمة وصبر الحليم وشجاعة المجاهد المقدام البطل.

ثوانٍ عسيرة مرَّت على عبدالله، في المقابل كان خصومه يتمنونها لأنها تقرّبهم من هدفهم وتجعلهم قاب قوسين أو أدنى منه ، فأخذوا ينظرون إلى بعضهم نظرات الظفر ، متبادلين همسًا التبريكات، لتأتيهم مفاجأة عبدالله مزلزلة تهدّ كل أحلامهم الوهمية التي بنوها على نفاد رصاصاته، فبهرتم وشهدوا له بالشجاعة وحبّ الموت، فبعد تلك الثواني التي سكتت فيها بندقيته عن الحديث وأيقنوا أنه أصبح خالي الوفاض من الرصاص أوقفوا إطلاق نيرانهم حذرين أن يباغتهم ويرمي بعضهم ما يرفع عدد جرحاهم ، فاستغل البطل الأبي توقفهم ، وخرج إليهم من الكهف ، ثم ألقى سلاحه أرضًا وكشف عن صدره ، وتابع سيره نحوهم غير هيّاب بهم وبسلاحهم متحديًا وهو يقول : ارموني فلا أخشاكم جميعًا ، فالرجل منكم إن كان ابن أبيه فليتقدم إلي

بلا سلاح ليرى كيف ستشكله أمه، وليرى الآخرون منكم مصرعه، فأنتم تمثّلون قمة الجبن والخور والرذيلة.

هذا التحدي لم يرقهم ففيه استخفاف لا نظير له، إذ بعث في نفوسهم الحقد الدفين والضغينة والكيد الذي خططوا به، فتجرأ أحدهم وجاهر بما يدور في خلده ساعيًا إليه متحديًا لعله يمسكه ليفوز بالسمعة على مرأى الجميع، فما إن اقترب منه حتى أمسك به عبدالله ورفعه بين يديه بكل قوة وهوى به أرضًا ليصيح من الألم الذي لحق به.

هذا المشهد أطاح بآمالهم أن يمسكوه بسهولة وأيقنوا أنهم لو نازلوه لأصابهم أذى كبير، وستكون الغلبة المعنوية له، والعار سيلحق بهم وسيكون الثمن كبيرًا. فلم يتمالك أحدهم نفسه وهو يرى صديقه المارق الذي يصيح ألمًا وهو ملقى أرضًا، فتميز غيظًا وضغط على زناد بندقيته مرسلاً بقية خزانها تجاه عبدالله، لتستقر رصاصاته في صدره المكشوف لهم، ولسان حاله يردد: لا أهابكم مهما فعلتم،

وكأن الشاعر العباسي الكبير أبا الطيب المتنبي يصف حاله في هذا الموقف :

إذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام

فالخسّة التي تخلَّق بها المارقون أبت إلا أن تفعل فعلها الآثم وتثبّت رسوخها في نفوسهم.

في المقابل كان البطل قد فقد توازنه من رصاص المكر والدونية ، لكن ثغره أسفر عن ابتسامة يستقبل بها الموت معبرًا عن سخريته واحتقاره لهم ، وهو يترنح يمينًا وشمالاً مرددًا : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، رافعًا إصبعيه بإشارة النصر عليهم مجتمعين ، لتحتضنه الأرض الوفية التي سيعود إلى حضنها من أحبها وختم حياته مدافعًا عن شرفها وكرامتها وناسها ، رافضًا أن تُمَسَّ من الأشرار. فمن قبل تصدى بشجاعة نادرة لمن جاء مهاجمًا حياضها ، ومروعًا قاطنيها. فقد عاهدها أن يموت دفاعًا

عنها وعنهم ، وها هي أمه الأساس تحتضنه بعدما تضرج جسمه بالدماء ليفارق الحياة شامخ الرأس رافضًا الضيم ، فكانت سعيدة بحضنه وضمّه بين جنباها ، فلو قُدِّر لها أن تعبِّر عن غيظها للفظته حممًا على هؤلاء المارقين الجبناء الذين لا يراعون جيرة ولا عهدًا ولا أصولاً ولا عرفًا معمولاً به في ساحات الوغى في مثل هذا الموقف. إن تصرّف هذه الطغمة اللئيمة بعيد كل البعد عن أصول التعامل في ساحات الصراع !

هذا الحدث المؤلم المبيّت من قبل مجموعة مارقة عمَّق الخلاف والشقاق بين طرفي النِزاع ، فالقتلة لم يكتفوا بفعلتهم الشنيعة تلك ، بل وضعوا سلاحه بين يديه مهشمًا وكتبوا على ورقة تركوها قريبة منه : (هذا عقاب من يعتدي على رجالنا والآتي أعظم)... لم يفكروا لحظة أن جُرمهم هذا سُبَّة شوهت سيرهم على الأيام ؛ لأنه غير مسبوق في منطقتهم ، فالرجل المترَبص به واجههم منفردًا ثابت الجأش وتمكّن من إصابة ثلاثة منهم ، أحدهم كانت

حاله خطيرة. وعلى الرغم من كثرتهم ونفاد رصاصه لم يستسلم ويرفع لهم الراية البيضاء بل تحداهم بلا سلاح، طالبًا منازلتهم رجلاً لرجل، لكن أحمقهم لم يمهله وأطلق العنان لسلاحه ليرديه صريعًا تضرجه دماؤه الزكية.

بفقده خسرت بيت جن بطلاً شهمًا مقدامًا بكل المقاييس، مخلفًا وراءه نارًا يسعّرها حقد وضغينة وشهوة للثأر مهما كلّف من نفوس.

لم يبقَ خبر الحدث المفجع حبيس القريتين، بل انتشر عبر الأثير إلى القرى المجاورة، كما تنتشر النار في الهشيم، فحطَّ عصا ترحاله في جبل العرب (السويداء)، فكان وقعه مختلفًا لدى بني معروف الذين هالهم ما حصل لأبناء عمومتهم في القريتين، فتداعوا وشكّلوا وفدًا رفيعًا من كبار رجالات المحافظة ليشارك في التشييع وتقديم العزاء، كما تقاطرت إلى القرية الوفود من قرى الحرمون، ومن حوران ممن يعرف الشيخ أبا عبدالله، ومن إدارة المنطقة بقطنا، ومن القنيطرة أهل وأقرباء زوجته ورئيس المكتب الثاني الذي

قدم العزاء بنفسه لما يكنه لعبدالله من تقدير واحترام إذ لمس فيه شهامة ومروءة قلّ نظيرهما.

كان وقع مقتله مفجعًا لعمه الذي وجد فيه ولدًا لا صهرًا، ولبقية معارفه.

تجمّعت هذه الجموع كلها في ساحة القرية التي ضاقت بالمشيّعين في يوم غير مشهود في المنطقة من قبل، فغدا حدثًا يُذكر على الألسنة، لتبقى سيرة عبدالله العطرة على كل لسان، كما كانت في الأمس في حفل تخرجه الذي ما زال ماثلاً لدى الكثيرين.

بدأت مراسم التشييع قبيل صلاة العصر من اليوم الثاني لمقتله بدءًا من مضافة أبيه، فالمسجد للصلاة عليه. بعد خروج الجثمان من المسجد أصرَّ زملاؤه في البلدة قبل دفنه أن يمرَّ موكب تشييعه على معظم أزقة القرية؛ لأنه ضحّى في سبيلها، ليكون متميزًا حتى في تشييعه، وليبقى قدوة للشباب يتأسون به في سلوكه وإخلاصه لبلده وأهلها.

أخيرًا وصل الموكب إلى مقبرة القرية ، ووري الجثمان الثرى، وتوبعت مراسم الدفن.

كانت العيون تذرف دموعًا حرَّة على هذا الشاب الذي لم يرتكب ما يستوجب قتله، لكن إرادة الله شاءت اختياره، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

حاول أبوه التماسك أمام الناس، يتقبل العزاء ممن حضر بعد الدفن مباشرة... ثم توزّع وجهاء القرية وفود المعزين في مضافاتهم مقدمين لهم الطعام ووسائل الراحة بعد يوم طويل قبل مغادرتهم القرية.

أصرَّ بعض الشباب من القرية البقاء قرب القبر ، وتعاهدوا على الثأر له من المارقين الذين أزهقوا روحه أمام الملأ ؛ لأنهم يرون الحياة لا طعم لها إن لم يأخذوا بثأره مهما حمّلهم عهدهم من تبعات أمام القانون. كانت حجتهم أن القتلى المارقين لم يكتفوا بالاعتداء على حرمة قريتهم من قبل، بل وصلت جرأتهم أن يترصدوا بطلها ليأخذوه أسيرًا، فبفعلهم الشنيع أجَّجوا نيران الحقد وحب الأخذ بالثأر حتى

أضحى الكل متوجسًا من المجهول الآتي. فغدا السعي إلى رأب الصدع وإصلاح ذات البين لإيقاف هذا النَزف صعبًا ، فالأمور تعقّدت أكثر ، فكأن من يبحث عن حل كمن يسير في طريق ذي مسلك واحد ، وإن كان للطريق اتجاهان ، فمن يسلك حارتيه همه الأوحد الثأر والثأر المضاد في سلسلة يصعب كسر حلقاتها إن استمرت تغذّي النفوس بالأحقاد والضغائن ، ناهيك عن التبعات التي تترتب على حياة كهذه ، ساحتها بيئة تعتمد في الأساس على معطيات الأرض التي تتداخل أجزاؤها متلاصقة حتى يصعب فصلها ، إضافة للمياه المشتركة في ريِّها ، كما أن طرق المواصلات والنقل العام مشتركة بين سكان المنطقة كلها ، فمن المستحيل أن يتجنّب أحد الآخر في مثل هذه البيئة.

هذا الواقع المعاشي لزَّم على وجهاء بني معروف في الجبل الأشم التدخل سريعًا ، فالهدنة التي رعوها من قبل لم تصمد أمام فعل المتهورين من الجانبين ، ولا بد من التصرف الحكيم والسريع حتى لا تنْزلق الأمور إلى الأسوأ ، ولإعادة

المياه إلى مجاريها. كان أكثرهم إلحاحًا على التدخل السريع مشايخ عشيرة (أبو عساف) كونهم يرتبطون بأبي عساف في بيت جن برابطة العمومة ، فالمصاب مصابهم ، فالشهيد عبدالله من أبناء عمومتهم وابن مختار القرية قريبهم ؛ لذلك تصارعت في أذهانهم مشاعر متناقضة، فهم فخورون ببطولة ابن عمومتهم ، وفي الوقت ذاته يتألمون لفقده ، فأخبار رجولته وجسارته أمام خصمه تروى على الألسن في المنطقة حتى وصلت الجبل ، فحديث الناس عن صموده وفتكه بخصومه ومواجهتهم بلا سلاح غزا كل مجلس.

# الفصل الأخير

لم يغادر وفد الجبل بيت جن كبقية المعزين ، لأن فقد عبدالله مصاب جلل راكم الكلوم، وأجَّج في النفوس نيران الحقد وحبّ الأخذ بالثأر أكثر من ذي قبل من القتلة المارقين ، من دون التقليل من مصاب القرية الأخرى في جرحاهم، فأحدهم يعيش في غيبوبة إذ نزف دمًا كثيرًا بعد إصابته على يد الشهيد ، لأن أصحابه المارقين لم يسعفوه ، بل حاولوا إيقاف نزفه بقطعة قماش حتى إنهاء مهمتهم القذرة.

رتّب بقاء الوفد على أبناء القرية تبعات إكرام الوفد والحفاوة به ، وأخَّر تنفيذ ما خطَّط له أصحاب عبدالله بمهاجمة قرية الجناة، بسبب لقاء مشايخ الجبل بوجهاء القرية وبدأوا يتسللون من الاجتماع فردًا فردًا ثم تجمّعوا بعيدًا

عن الأعين بفضل معرفتهم بفجاج الجبل، فكما قيل: (أهل مكة أدرى بشعابها) واضعين نصب أعينهم مهاجمة البيوت المتطرفة، ففيها بيتان يسكنهما مارقان من مهاجمي قريتهم من قبل، لكن خطتهم اكتشفت بالمصادفة، فأحد الوجهاء سأل عن ولده لما رجع إلى بيته فلم يجده، فنادى الآخر فوجده يهمّ بمغادرة المنْزل، أمسك به، وبعد جدال بينهما أخبر الشاب أباه بما يخططون. فأسرع الوجيه برفقة غير واحد إلى نقطة التجمع واستدركوا الأمر قبل وقوع طامة أخرى.

غادر وفد الجبل ضُحى اليوم التالي متوجهًا إلى القرية الأخرى، ولما وصلها استقبله وجهاء القرية بالترحاب آملين أن ينورهم بحل يخرجهم من أتون الحدث الذي اكتوى به أهل القريتين، وأفقدهم الشعور بالأمان. فعبّر أحد وجهاء القرية عن أسى الناس في قريتهم لما لحق مختار بيت جن من أذى بفقده ولده، فالمختار عرف عنه إسهامه في إصلاح ذات البين في المنطقة، وله حضور مميز ولافت على مستواها

ففقيده فقيد الجميع لما يحمله من صفات ومآثر حسنة ، فكأنه نسخة عن والده كان يسدي الخدمة لكل من يقصده في عمله بالقنيطرة.

تأثر وفد الجبل بهذه المشاعر التي يعبِّر عنها الوجيه ، وتمنى أن يقف هذا المسلسل الكئيب بين أبناء المنطقة الواحدة ، ملمحًا إلى أهمية الصلح ؛ فالصلح خير ، ووعد وجهاء القرية في الاستمرار بالسعي على وضع حد لنَزف الدماء ، كما واسى الوفد أسرتي الجريحين الراقدين في المشفى ، فأحدهما يعيش في غيبوبة ؛ فجسمه لم يتقبل الدم الذي حقن به رغم محاولات الأطباء الحد من تدهور حالته ما جعله يلفظ أنفاسه ، أما الثاني فوضعه أخف ما ساعد المحققين على أخذ بعض المعلومات عن المشاركين في الحدث لتبدأ الشرطة ملاحقة الجناة الآخرين الذين تواروا في الكهوف. ما عدا الذي طرحه عبدالله أرضًا فقد كان أخفهم أذى فلم يذهب للمشفى وبقي في بيته ليداهمه رجال الشرطة ويحملوه معهم إلى مخفر الناحية.

وصل خبر وفاة الرجل إلى القرية فكان صاعقة كادت تزلزل كيانها، فثار المتهورون ثانية متوعدين بيت جن بالويل والثبور عازمين على مهاجمتها، فتدخل أعضاء الوفد وحالوا من دون وقوع كارثة أخرى قد تستجر قرى أخرى إلى أتون محرقة تطال الأخضر واليابس في المنطقة، ولكي يوقف الوفد من غلواء المتهورين بقي ليشارك في التشييع وليقدم العزاء بالفقيد، وليتابع مساعيه لنسج حل قد يسهم في إخراج الناس في القريتين من نفق مظلم لا نهاية له إن استمر الحال على ما هو عليه، فأشار الوفد على عقلاء القرية بأن يراقبوا تصرفات المتهورين من دون تهاون، وليكونوا حازمين معهم، فمن يرفض فليسلم لقوات الأمن على مدخل القرية.

في اليوم التالي شيعت القرية قتيلها، وأثواب الحزن تلفها على الرغم من تقاطر الوفود إليها لتقديم التعازي، فقد شكَّل تقاطرها مشهدًا رهيبًا غمره سكون حزين، كانت تقطعه أحيانا منبهات سيارات الشرطة التي تجوب المكان بين

الفينة والأخرى، فالقرية فقدت شابين من أبنائها لم يفصل بينهما سوى شهور، وهناك ثالثٌ يرقد في المشفى، وغير واحد مشرد في الجبال، ما انعكس سلبًا على أهلها.

سكنت نشاطات القرية لولا دوريات الشرطة التي تجوب المنطقة ذهابًا وإيابًا مراقبة مكان الحدث حائلة من دون حدوث الأسوأ، متلقفة أي خبر يمكّنها ممن أسهموا في الحدث الأخير.

أقامت القرية سرادقًا لاستقبال المعزين من الحرمون وغيره طيلة فترة العزاء.

في اليوم التالي للدفن غادر عضوان من وفد الجبل متوجهين إلى بيت جن ليجسا نبض وجهائها ويطرحا تصور وفد الجبل للحل، على أن يتولى القسم المتبقي من الوفد عرض المقترح على مضيفيهم بعد انتهاء فترة العزاء، آملين أن يحصلوا على موافقة الطرفين لتستمر المساعي في ترتيب صلح في المستقبل بين الفريقين.

وصل عضوا الوفد إلى بيت جن التي ما زالت غارقة في حزن عظيم لفقدها فارسها وابن مختارها، فحاول العضوان التخفيف من وقع المصاب مذكّرين ببعض الوقائع للعبرة، ثم انفردا بالمختار ليضعا بين يديه ما حملاه من مساع لإجراء الصلح والحد من معاناة الناس، فهو أكثر الناس مصابًا، لكنه أرعاهم لمصلحتهم.

سمع حديث الرجلين، فتردد خوفًا من أن يفهم الناس إقدامه على الصلح تفريطًا بدم ولده، فالأولى به أن يأخذ بثأره من قتلته. هذا الهاجس كان كابوسًا يأتيه بين فينة وأخرى ليضاعف همه وغمه، فغدا غير قادر على التصرف، لكن حكمته زحفت إلى ساحة تفكيره لتبعد هذه الأفكار الهدامة متسلحة بهدي دينه ومسلك رسوله بعد فقده حمزة أسد الإسلام في غزوة أحد، والتمثيل بجثته. فهاله ما رآه، فهدد أن يمثّل بهم، لكنّ الله تعالى أنزل عليه الهدي فامتنع واحتسب. هذا الهدي هدّأ من توتره وصراعاته الداخلية وكبح حب الانتقام في نفسه فاستعاذ بالله من الشيطان

واستذكر نعم الله عليه فقال: لقد عوّضني الله عن عبدالله طفله الذي ينبغي أن أربّيه تربية حسنة آمنة، فإن استمرت هذه الدوّامة فقد أفقد ولدي الثاني، وأنا رجل كبير، كما أن الناس يحبون أبناءهم مثلي، فلِمَ نستمر في إنماء الحقد بيننا وبين الجيران وإلى متى؟ لا بد أن يأتي يوم يكون الصلح هو المآل حتى لا نترك أرض آبائنا وأجدادنا فيكون أحفادنا مشردين في الجبال خوفًا من ملاحقة الدولة أو تصيد الخصم... أيصح هذا؟ فطلب منهما فرصة ليفكر ويستشر.

اختلى بأقرب الناس إليه صديق العمر جاره أبا علي، وأسرَّ إليه بمسعى عضوي وفد الجبل، فطلب أبو علي منه وقتا ليفكِّر.

قلَّب أبوعلي الأمر، وغلَّب مصلحة الناس، ثم جاءه مقترِحًا عليه قبول الصلح كما أوصت تعاليم الدين إذا وافق الخصوم الآخرون حتى يتابع الناس حياتهم.

كان المختار يصغي إلى كل كلمة من رأي صديقه، ولَّما أنهى إبداء رأيه قال المختار:

- أحسنت أبا علي وسأعمل على نقل المقترح لبقية الوجهاء.

ثم طلب من حاجبه إبلاغ الوجهاء بموعد الاجتماع.

أطلع المختار الوجهاء الحضور على وجهة نظر عضوي الوفد في وضع حد للحدث المؤلم، وطلبهما منه أن يقبل أهل القرية الصلح مع خصومهم حتى يجنبوا الناس ويلات المآسي التي تعمق القطيعة وتزرع بذور الكراهية والضغينة بين الأجيال، فلمَ لا نفكر نحن - وجهاء القرية - بحل يضع حدًا لهذه الدوامة التي استعصت؟ ولنوقف عصا تسيار الثأر والثأر المضاد بآثارهما المدمرة على مكتسبات الناس المعاشية والنفسية، كما ذكّراني بأن الصلح سيكون في نهاية المطاف مهما طالت أيام المحنة بحكم الجغرافيا. فالقريتان متجاورتان ومكلومتان. أيصح أن يبقى ناسهما وجلين خائفين من المستقبل ومفاجآته؟ وعرضا علي مجريات الأحداث وانتقالها من سيئ إلى أسوأ كلما بقينا من الحل بعيدين، كما نقلا لي مقترحًا من رجالات جبل العرب سأطرحه عليكم لإبداء

الرأي به. نقل لهم ما قاله عضو الوفد له : (إنك فقدت ابنك على يد مجموعة مارقة تقصّدته ، في المقابل فقدت قريتهم أحد أبنائها نتيجة إصابته على يد عبدالله. فإن كان مقتله بسبب الدفاع عن النفس ، فبالتأكيد لا يتساوى مع مقتل عبدالله الذي بيّت لمهاجمته وقتله ، كما أن لدى القرية شخصًا آخر يرقد في المشفى للعلاج وقد فقد عينه ، فإن شفي فسيكون ذا عاهة دائمة ، وإن توفي فلله الأمر من قبل ومن بعد ؛ لذلك ارتأى وجهاء الجبل أن تجمع قريتكم وقرية خصومكم مبلغين متساويين من المال ثم تتبادلانه ، فيعطى ثلث المبلغ الخاص بقريتكم كتعويض للذين تضررت منازلهم ، أما الثلثان الآخران فيكونان دية عبدالله. في المقابل يعطى أهل الراعي القتيل نصف المبلغ الخاص بقريتهم دية ، والنصف الثاني يوزَّع بنسبة ثلثين لأهل القتيل الثاني ، والثلث المتبقي يعطى لمن يرقد في المشفى على فقده عينه. فإن توفي تتكفّل قريته بجمع القيمة المالية الباقية التي تساويه بالقتيل شريكه في جريمة مقتل عبدالله من دون إسقاط الحق

العام عن الجميع لكي تهدأ النفوس ولنبعد مخاطر تفجر الأزمة من جديد ، كما نقلا لي تعهد مشايخ الجبل بكل تكاليف وتبعات يوم إجراء المصالحة.

هذا ما نقله عضوا الوفد أضعه بين أيديكم أيها الوجهاء لإبداء الرأي والوصول إلى رأي نهائي كي أبلغهما.

وأنهى المختار كلامه بالقول :

– بوركت تلك المساعي ، وهدانا الله إلى الصواب والرشاد.

تبادل الحضور الآراء ، وطلبوا أن يعطَوا فرصة للتفكير ، واتفقوا على العودة غدًا للاجتماع مصطحبين مندوبًا عن السكان الذين تعرضت منازلهم للهجوم ليعطيهم صورة أوضح عن قيمة الأضرار.

في اليوم التالي حضروا إلى مضافة المختار وبدأوا يتداولون مقترح وفد الجبل بندًا بندًا وبينوا ما له وما عليه. فبين أخذ ورد ومماحكات عدة ؛ توصلوا أخيرًا إلى رؤية

مشتركة نقلها المختار إلى وفد الجبل الذي حملها معه وغادر متوجهًا إلى قرية الخصم ليكمل عقد وفد الجبل هناك.

فلما استقر عضوا الوفد عرضا ما توصلا له مع وجهاء بيت جن على العضوين أولاً ، فتفاءلا بما سمعا ووجدا نقاط الخلاف يمكن التحاور حولها.

مضى اليوم الأول على وصول العضوين من بيت جن، شاء الله في هذه الأثناء أن يحل وفد من قرى الجولان على القرية لتقديم العزاء ، فعرف الوفد بمقترح وفد الجبل ورد أهل بيت جن ، فأسهم الوفد مع وفد الجبل في إبراز إيجابيات الصلح وضغطوا جميعًا على وجهاء البلدة للإسراع بالتوصل إلى حل وسط يأخذ بمطالب الفريقين.

وبعد مد وجزر تمكّن الوفدان من انتزاع موافقة وجهاء البلدة على النسخة المعدلة التي راعت ملحوظات الطرفين ليصار إلى نقلها لبيت جن لأخذ الموافقة النهائية.

تتابعت الضغوط لانتزاع موافقة وجهاء بيت جن ، لكن الجهود اصطدمت بمطلب المختار الذي أصرَّ على ألا يحضر أحد من أقرباء المجموعة المارقة التي قتلت ابنه الصلح حتى يسلم بقية المارقين إلى أيدي العدالة ، كما فعل هو وسلَّم قتلة الراعي.

وللخروج من هذا المطلب الذي استعصى على الحل تعهّد الوفدان بتسليم هؤلاء للعدالة خلال أسبوعين من بعد يوم الصلح. قبل المختار تعهد الوفدين ليتجاوز الصلح العقدة الأخيرة ويصبح إجراؤه واقعًا.

توافق الجميع على يوم يناسبهم لإجراء الصلح على أن يدعى له كل وجهاء المنطقة ومدير المنطقة ورئيس المكتب الثاني وجمع غفير. كما اختير لإجراء الصلح مكان فسيح بين القريتين. وبدأ القائمون عليه بتجهيزه ونصب سرادق كبير يستوعب الجموع التي دعيت ، وتوفير كل المتطلبات لإنجاحه.

توافد المشاركون في صبيحة اليوم الموعود من قُرى الحرمون، إضافة لأهل الجبل، والقائم مقام، ومدير منطقة قطنا، حيث بدأ اللقاء بكلمة مدير المنطقة، ثم ممثل الوفدين اللذين أسهما في الوصول إليه، وختمت الكلمات بكلمة وجهاء المنطقة ارتجلها أحد المخاتير.

ركّزت كل الكلمات على نبذ الخلاف والحقد واتباع الهوى، وحثت على تحكيم الشرع والقانون والحكمة في حل أي مشكلة تقع، لأن وقوع المشكلات أمر طبيعي ووارد، فالمطلوب مراعاة مشاعر الناس ومصالحهم قبل أن يُقدم المرء على عمل يلحق بالأبرياء الأذية.

وتبع ذلك أن رعى رعاة الصلح مصافحة أبناء القريتين بعضهم بعضًا واعدين بالتعالي على الجراح لإعادة الحياة إلى سابق عهدها من أجل مستقبل أبناء القريتين، ثم تناول الجميع الطعام بهدف إذابة التشنج.

كان يومًا مشهودًا في المنطقة بأسرها، حيث وضع حدًا لمأساة كادت تبدد استقرار المنطقة بأسرها بسبب تداخل مصادر رزقها زراعة ورعيًا وحتى سفرًا.

غادرت الوفود، وبقي وفد الجبل ليجمع وجهاء القريتين وجهًا لوجه لبعث الثقة في النفوس وإذابة ما تبقى من جليد، فلما اطمّأن الوفد لمجريات الاجتماع ولمس مستوى مقبولاً من الحوار بين الطرفين؛ انفضَّ الجمع بالتأكيد على أهمية الوفاء بعهد وفدي الصلح للمختار بتسليم الجناة من قتلة عبدالله للقضاء، وإلا فالنار ستبقى تحت الرماد، فبمجرد تعرّضها لهبة فستعود مستعرة.

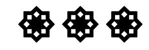
عاد كلٌّ إلى قريته... فلما دخل المختار بيته، ونادى زوجة ابنه لتأتي له بابن عبدالله؛ حمله وانزوى جانبًا، وبدأ يسترجع لحظات قديمة ساقتها إليه الذكريات قسرًا، فكلما ملأ عينيه منه تخيَّل أنه يرى أباه في صغره، فهمس في أذن الرضيع بأنه سيربيه أحسن تربية ليكون خير خلف لخير سلف.

كانت الدموع تنهمر من عينه رغمًا عنه ، فمسحها سريعًا ليخفي ضعفه أمام الحدث الجلل.

عاد الفلاحون إلى أراضيهم يعملون ويجمعون محاصيلهم، لكن الأيام في نظر المستثنين من الصلح من الجانبين كانت مختلفة ، فهم يعملون في وجل وخوف من أن يواجه بعضهم بعضًا ، فماذا سيحدث وقتها ؟ هل يتمكن أحدهم من كبت ما يجيش في نفسه إن استثير ؟ أيمكنه كبح ثورة غضبه وهو يرى خصومه في أراضيهم يمارسون أعمالهم بحرية ، ولا سيما مع استرجاعه شريط الحدث المفجع ؟

ما أشبه ما فُعل بجرحٍ ريم على دغل. فالأمور ينبغي أن تعالج بشمول حتى تكون المعالجة ناجعة ومفيدة ، فتركت للأيام أن تجبر ما كسر من أواصر الصداقة بين الجيران الذين يتلاصقون في أراضيهم.

ماذا سيحدث في الأيام الآتية ؟ هل سيفعَّل هذا الصلح ليغدو حقيقة ، أم يتسلل إليه من همُّه وأدُ الاستقرار لأن حياته مرتبطة ببث الفوضى والصراعات ؟.



# المؤلف في سطور

- حاصل على أهلية التعليم الابتدائي من دار المعلمين بدمشق ١٩٧٠ ، وإجازة في قسم اللغة العربية وآدابها من جامعة دمشق ١٩٧٥.
- عمل مدرسًا في ثانويات سوريا والكويت ، ثم مدرسًا أول ، فموجهًا ، ومازال.
- من إسهاماته : المشاركة في تأليف كتب اللغة العربية للصف الثاني في وزارة التربية بالكويت ، كما عمل مصححًا في صحيفة الأنباء بالكويت.

- **المؤلفات :**

- مجموعة قصصية
- الحرمان : رواية
- بيت جن : رواية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٩م
- الطفلة سوريا : رواية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٩م

- البريد الإلكتروني : lina. domani@yahoo. com




**Tel :(+2) 01288890065**
**www. shams-group. net**